

بعض الرحيل لا يُنهي القصة...
بل يمنحها معنى آخر.

حين تكون الرحمة
أوجع من الحب...

راقية بي

سهير المصطفى

رواية

رأفة بي

سهير محمد خير المصطفى

حقوق النشر

© 2021، 2026 سهير محمد خير المصطفى

صدرت الطبعة الورقية الأولى 2021

صدرت الطبعة الإلكترونية 2026

جميع حقوق هذا العمل محفوظة للمؤلفة.

لا يجوز إعادة نشر هذا الكتاب أو نسخه أو تخزينه في أي نظام لاسترجاع المعلومات، أو نقله بأي وسيلة كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير أو التسجيل أو غير ذلك، كليًا أو جزئيًا، دون إذن خطي مسبق من المؤلفة، باستثناء الاقتباسات القصيرة المستخدمة لأغراض النقد أو المراجعة مع الإشارة إلى المصدر.

هذا عمل أدبي من نسج الخيال، و أي تشابه بين الشخصيات أو الأحداث و أشخاص أو وقائع حقيقية هو محض مصادفة، مالم يذكر خلاف ذلك.

الإهداء

إلى من ربياني صغيرا

المقدمة

خرجت من حرب بلادي، ألملم شظايا ذاكرة مشوهة.

راجية أن أجذك ملجأً بأوي روحي ويرأف بغرّبي، إلا أنّ رأفتك عاندت وتمردت وتجرّدت من راءها، لتُحيل
الحب إلى آفة حرب مقطوع الأوصال، مبتور الأطراف، لتتبعثر من جديد وتحول بيننا المسافات، وتندر بيننا
الكلمات.

الحب كالحرب يا سيدي، لا يُنحر بها إلا الأبرياء.

سارة

الفصل الأول:

إذا شاء القدر

كلّ شيء آيلٍ إلى الزوال إلا ما يُحفر في الذاكرة ويستوطن القلب، كنت قد بدأت كتابي الذي قد قررت أن أكتبه لأروي بين سطورهِ حكاية والدي، ليست حكاية امرأة عادية عاشت في زمن ما إنما امرأة بنظري مميزة ولو كانت الآن نموذجاً للكثيرات في مجتمعات مختلفة إلا أن الزمن تغير ومع ذلك لا زالت تلك المرأة تعاني. بدأت بالفراق باعتقادي إن ابتدأنا به ننتهي باللقاء وكأننا نتحايل على القدر بأوراقٍ مخضبة بحبرٍ من مداد ذاكرتنا.

استيقظت ذلك الصباح وأنا متعطشة للكتابة، قلبت أوراق مسودة الكتاب، قرأت المقدمة فلم ترقني، مزقتها لأني لا أريد فراقاً ولو كان وهماً على ورق، يكفي بأنه كان فراقاً طويل الأمد قبل أن نلتقي، أوليست أرواحنا معلقة ببعضها حتى قبل أن ألقاك؟

ألم تكن تلك السنوات قبل مجيئك فراقاً قد حكمه علينا القدر مسبقاً في محكمة الظروف والأيام؟
لنلتقي إذن لقاءً أبدياً لا فراق بعده، لقاءً سرمدياً ولو كان بين دفتي كتاب.

كانت السنوات الماضية والحرب التي اندلعت في بلادنا قد فرقنا وربما لم تكتب لنا لقاءً حينها على الرغم من أواصر القرية التي تجمعنا، ولو شاء القدر لجمعنا والتقيت و لرأيت وجهك الذي عرفت ملامحه في صورتك المعلقة على جدار بيتك، حينما كان سيريك الخالي منك يحتضني ووسادتك وغطاؤك المشبع برائحتك وعطرك وكأنك تركت شيئاً من روحك لتؤنس روحي.

كنت خائفة من أصوات الصواريخ والطائرات وتلك الغوغاء التي كانت تحيط بنا، سالت دموعي غزيرة على وسادتك، ليتني التقيت في ذلك اليوم، لكنها لعنة الحرب التي شتتت البلاد ساقتني إلى بيتك ورفقتك عني حتى قبل أن ألقاك، كنت أجلس في أرض الديار تحت عريشة العنب وأسند ظهري على حائط غرفتك التي ما كنت أغادرها وكأني آنس بك دون وجودك.

لم تكن إقامتنا مطولة في ذلك البيت الذي غادرناه كما غادرنا غيره لكن ذكراه لم تغادرنني ولا ذكرى صورتك.

كانت أُمِّي قد أخبرتني بأن البيت تعود ملكيته لوالد جدتي أم والدي الذي توارثوه أولاده وأحفاده وعاشوا فيه على مدار أجيال وبقي محافظاً على تراثه الدمشقي الجميل وجدرانته الشائخة الملونة وساحته الواسعة التي تتوسطها نافورة كانت يوماً ما تنبض بالجمال، لكنها تلك الأيام كانت كعجوز فقدت أبناءها وجف قلبها حزناً، امتلأت حوافها بالنساء الجالسات ينتظرن فرجاً بدل أن كانت تتزين بالورود والريحان وحينما لم يكن سوى خرير الماء يكسر صمتها، نابت عنها أصوات الرصاص.

مرت السنوات وبتّ بعيدة عن كل الوطن، سهوت عنك لربما وسهوت عن كل الماضي، بحاضري الذي بدأت به في بلاد غريبة ووطن جديد.

في إحدى أيام الربيع الجميلة على حين صدفة التقيتك، وكان لقائنا في المكتبة، كنت أمشي حاملة كتيبي التي اخترتها بعناية، أشد بها على صدري وكأني أحتضن طفلي الذي ولدت بعد طول انتظار، أشد بها إلى قلبي ولو استطعت لأدخلتها فيه والتصقت بي مختصرة على نفسي الوقت لقراءتها، كانت الكتب مؤنسي في غربتي وصديقتي المخلصة.

كنت مسرعة في المشي، ناظرة إلى أعلى الرفوف كي أتصيد كتاباً آخر أضيفه إلى قائمة قراءاتي لهذا الشهر، لطالما حلمت بالمزيد المزيد من الكتب لألتهمها على مائدة شغفي وحيي للمطالعة.

وعلى حين فجأة، كاصطدام كوكبين دريين كان لقائنا، سقطت الكتب من يدي، شهقت كمن أسقط لوحة بلورية ثمينة، وجحظت عينايا وكأني أشاهد وأسمع دوي تكسرهما وتطير شظاياها على الأرض، كانت عيناك كزمردين تشخصان أمام عيني، ووجهك ملاصق لوجهي، دُهِشتَ لرؤيتي كما فعلتُ أنا وسقط قلبي حيث سقطت كتيبي، تأملت وجهك لبضع ثوانٍ ثم صرفت نظري عنك.

قلت لي حينها:

-أعتذر، هل حدث لك شيء؟

ابتعدت عنك بضع خطوات إلى الوراء وأنا أحاول أن أخفي ارتباكي وقلت لك:

-لا لم يحدث شيء لكن أخشى أن تتلف صفحات الكتب، انظر كيف تناثرت على الأرض.
انخيتَ بقامتك الطويلة لتجمع لي كتيبي، لم أعلم وقتها بأنك تناولت قلبي معها وأخفيتَه وظل بحوزتك.

قلت لك:

-لا عليك، سأجمعها أنا.

انخيت بدوري لألتقط كتاباً كانت قد فُتحت صفحاته، لتقع عيني على جملة مفادها (أجمل حبّ هو
الذي تعثر عليه أثناء بحثك عن شيء آخر، ..)

وكأنها رسالة لنا، لتخبرنا بأن القدر يسوق إلينا ما قد سهونا عنه وتركناه على رف الزمن، كانت قد أريكتني
تلك الجملة كثيراً فأسرعت بإغلاق صفحات الكتاب لتنظر بدورك إليّ ملاحظاً ارتباكي تمنعت في العنوان
وأنا أحاول إخفاء اسمه.

سألتني مبتسماً:

-تقرئين لأحلام مستغامي؟

أجبتك:

-آه.. نعم .. أقرأ لها فهي كاتبتي المفضلة.

-حقاً؟

-ولم تسأل؟

أجبتني وأنت تنظر إلي بنظراتٍ اخترقت قلبي:

-لا لشيء ولكني أحب القراءة ولطالما تلفت نظري الفتاة المثقفة، عناوين الكتب التي بحوزتك تدل على
أنك ذات ذوق رفيع.

سألتك وأنا أتفقد الكتب بين يدي:

-وهل قرأت هذه الكتب من قبل؟

أجبتني بثقة:

-بالطبع، قارئ مثلي لن تفوته هذه الكتب، لكن اختياريك لها قد أثار فضولي (حب ، نسيان كم، شهياً كفراق) وكأنك تعيشين قصة حب وتحشين من فراق وتبحثين عن نسيان.

قلت لك مستنكرة :

-لا، ماذا تقول؟ أي حب وأي فراق وأي نسيان؟ مجرد عناوين لا أكثر، وأنت تعلم هذا بما أنك قارئ لها وكلامك دليل على ذلك.

حاولت أن أتفادي خجلي منك بترتيب هندامي، وإعادة لف الوشاح حول عنقي بيد واحدة، ثم تابعت:

-تعلم بأن الكاتبة أحلام مستغانمي كاتبة عظيمة وتروقي القراءة لها فأنا أتعلم منها وتعجبي أفكارها فلقد كتبت عن الرجل والمرأة وأيدت كليهما، ووقفت بجانب أحدها ضد الآخر، قدست المرأة حيناً، ورفعت من مكانة الرجل حيناً آخر.

وظبت هندامي وتابعت التماس أزرار المعطف تحت الوشاح أتفقد إغلاقها وأردفت:

-هي تكتب عن الحب بجميع تلوناته لذلك من الطبيعي أن ترى بين يدي أكثر من كتاب لها باختلاف عناوينه، كما أنني أقرأ كل مرة لكاتب مختلف، أنني عدداً من مؤلفاته لأنتقل إلى كاتب آخر.

بعيونك الزيتونية كنت تنظر إليّ مبتسماً، توقفت عن الحديث، تجمدت عينا في عينيك اللامعتين، ثوانٍ، دقائق لا أدري.

عيناك لم تكونا غريبتين عني وكأني وقعت في فخ جبهما من قبل لكني لم أعد أتذكر أين رأيتهما.

كنت قد عرفت بأنك ابن بلدي من لهجتك الدمشقية الجميلة، شعرت بأني عثرت على وطني ليس على شابٍ منه فقط، حتى أن كلامك كان يأخذني إلى حارات الشام حيث قضيت طفولتي و إلى ذكرياتي في العشرين سنة التي عشتها فيها.

تسارعت نبضات قلبي وحرارة سرت في عروقي، وأنا أتأمل وجهك صحوت من شرودي و قلت لك

مرتبكة:

-اعذرنني، لقد تأخرت عن مواعدي.

قلت لي مقاطعاً: وهل يرتب لي القدر موعداً معك في وقت آخر؟

أجبتك وأنا أشعر برعشة الحب قد بدأت تسري في عروقي:

-لا أدري عن أي موعد تتكلم؟ أمي بانتظاري في الخارج أنا ذاهبة، سعدت بلقائك.

انسحبت من أمامك هاربةً وشعرت وكأني نسيت شيئاً ما عندك، شيء كان يحثني على الالتفات إلى الوراء لأرى ما نسيت، لكنني ركضت مسرعة وخرجت.

كان قلبي يخفق بقوة، صعدت إلى جانب أمي في سيارة الأجرة وبدأت أتفقد الكتب.

أغمضت عيني وكأني أحاول أن أخبرك فيهما كيلا تراك أمي التي بدأت بالحديث معي وأنا أتفادى النظر إليها، شعرتُ وكأني عدتُ تلك الطفلة الصغيرة التي ترى أمي فيها كل ما أخفيه حينما تقول لي انظري في عيني لبضع ثوانٍ فتكتشف أمي كل ما أواريه عنها فأسترسل باعترافي لها، أما اليوم خشيت أن أحدثها عنك ولم تكن تلك عادي فلطالما حدثتها عن كل ما يحدث معي وعن كل إنسان أقابله.

كانت قد تبادرت إلى ذهني منذ مدة فكرة أن أكتب كتاباً، لا أن أقتصر على كتابة المقالات في الجريدة التي أعمل بها، ولا تلك الخواطر والأشعار التي أسطرها بفوضوية مرهقة وأبعثرها على متصفحني على الفيس بوك، قررت أن أكتب عن حياتنا أنا وأمي، ولكن حينما تعثرت بك وأحبيتك وكان لي قصة معك لم أر نفسي إلا وقد أقحمت قصتنا في الكتاب، علني أكتبني وأكتبك ولا أفترق عنك وعن أمي حتى ولو على الورق.

أخبرت أمي عن فكري في البدء في الكتابة بجدية هذه المرة، فانشرحت أساريها فرحةً وقالت لي:

-جيدٌ ما تفكرين به، حققي حلم أمك الذي طالما حلمت به ولم تسعفها الظروف لتحقيقه، لكن عن ماذا سيكون كتابك؟

أجبتها:

-عنك وعني.

ضحكت ثم قالت لي:

-هل تنوين كتابة سيرتنا الذاتية يابنت، صحيح هي قصة أمك تستحق أن تُضم بين دفتي كتاب لكني لا أحبذ ذلك، لا أريد أن أتذكر شيئاً من الماضي.

-لعلك إن أفرغتي ذاكرتك على الورق تُشفين منها.

بعد دقائق من الصمت والسائق يدير مقود السيارة ويحترق الليل باتجاه بيتنا، اقتربت من أمي ولففت يدي حول ساعدها ثم شكوت لها شعوري بالبرد.

كنت أرتحف، ودمائي تجري في عروقي حارّة، لم أدرِ لم تلك الرعشة التي كانت تسري في أنحاء جسدي كمصاب في الحمى، ربما كانت تلك الحمى التي أصابتنى بك، حمى حبك الذي تسلل إليّ دون أن أشعر.

قالت لي أمي وهي تتحسس حرارتي بيدها التي وضعتها على جبيني:

-أخشى أن تكون حساسية الربيع قد أصابتك.

ليتها قالت حساسية الحب داهمتك، ذلك الحب الذي يتفتح كبراعم الربيع بعد شتاء باردٍ طويل، فترتعش الأشجار لتنفذ عن كاهلها بقايا أوراقها الميتة وتكتسي ببراعم جديدة وتفتح زهوراً بيضاء طاهرة تُبشر بشار يانعة.

قلت لها:

-ربما ذلك، وربما جولتي بين الكتب قد أتعبتني وأشعرتني بالنعاس.

لم أكن متعبة بقدر ما كان لقائي بك حدثاً أشبه بصدمة كهربائية لمريض قد توقف قلبه، وأنا كنت أعيش بلا قلب ينبض بالحب، وكما المريض حينها من أجل أن تعود علاماته الحيوية إلى طبيعتها يحتاج للبقاء في العناية المشددة بضعة أيام فيصحو بعدها دون أن يعلم ما حلّ به، كنت كذلك لم أعلم ما حلّ بي ولم أدرك ما أشعر به.

-سأصنع لكِ كأساً دافئاً من الزنجبيل والعسل حين وصولنا، لا أريد لابنتي أن تمرض.

ليتها تصنع لي كأساً من قهوة داكنة لأصحو من ذهولي واضطرابي وتعيد لي ذاكرتي التي سافرت بي إلى بلدي، وأشعلت في نفسي الحنين لدمشق.

قلت لها: حينما نصل اصنعي لي ما شئت.

ابتسمت وهزت برأسها موافقة وساد الصمت بيننا، ملأت رئتي بالهواء وحبست أنفاسي لبضع ثوانٍ ثم أطلقت سراحها من بين شفتي فخرجت حارة كدمي.

وكان خيالك ذلك الوقت لا يغادر مخيلتي أتساءل في نفسي:

من يكون؟ واضحٌ من أنه يحب الكتب مثلي، وبأنه شغوف بالقراءة ووجهه ليس غريباً علي وكأني التقيته من قبل.

نادراً ما كنت ألمح شباباً في المكتبة، كان أغلبهم ممن تجاوز الخمسين عاماً من أولئك الذي عاصروا الجيل الذهبي، الذين لم تستهويهم التكنولوجيا ولا القراءة الإلكترونية، لذلك كانوا يرتادون المكاتب ليلتمسوا الورق ويشمّون رائحتها.

أما أنا ولأني نشأت بين الكتب منذ نعومة أظفاري، ما زالت رائحتها تبعث في نفسي السكون، وقراءتها تخلق بي إلى آفاق بعيدة، تسافر بي وأنا في سريري، تنفض عن عقلي تراكمات الأيام، تملي عليّ وحدتي. وكنت أنت كبطل رواية خرج إلي من بين أوراق الكتب، ككائن حبري لطالما حلمت أن ألتقي به، لطالما رسمت في مخيلتي فارس أحلامي وهو يمتطي صهوة الكتب، لم يكن يغربني المال ولا الجاه ولا الحسب ولا النسب، ما يهمني هو رجلٌ ذو عقلٍ منفتح، قادر على احتوائني لا احتواء جسدي.

عشنا أنا ووالدي وحيدتين، أمي التي كانت لي كل شيء، منحني الحب والاهتمام، صقلت لي شخصيتي، علمتني أن أحب نفسي أكثر من أي شيء، لأنها لم تكن تريد لي أن أتذوق من مرّ الحياة كما تذوقته وهي الوحيدة التي تبقت لي بعدما حلّت الحرب في بلادنا والتي غادرناها إلى مصر.

في اليوم التالي رتبت كتي الجديدة في المكتبة، زادت عائلي ما يثريها من أفكار لمسيرتي الأدبية، جلست أمام النافذة أتأمل السماء الزرقاء وتلك الغيوم كالقطن الأبيض تناثرت هنا وهناك ونسمات لطيفة تدخل من النافذة تتطاير معها الستائر، تحمل عبق الربيع الذي يطرق الأبواب.

أمام النافذة كانت طاولة صغيرة قد تركت عليها آخر كتاب كنت أقرأه ليلة أمس وإلى جانبه قصاصات أوراق كنت أدون عليها اقتباسات تروق لي، وإلى الأمام قليلاً جهازي المحمول.

جلست أحسني قهوتي وكتبت على حائط صفحتي على الفيس بوك:

« لستُ امرأةً عادية، أفتني أثر الحروف لتدُلني على منبع الكلمات، لتصل بي إلى وهج الحقيقة، أختارُ منها ما يليق بقلبي وأتركُ منها ما يؤذيني.

أنبشُ بين السطورِ ما يصنعُ نهايات جميلة لكلِّ القصص، وتلك التي لا أجدُ من قراءتها سوى الألم، أحاولُ تغييرَ مسارها لتصبَّ في بحرِ السعادة بدلاً من أن تضيعَ في وديانٍ لا نهايةَ لها، فتنبُّب وتعدو أرضُ قاحلة وكأُها يوماً لم تكن، وكأنَّ الربيع لم يزرها البتة...»

أنهيت كتابتي لهذه الكلمات وبنقرة على « إرسال » أبحرت في البحر الإلكتروني الأزرق «الفيس بوك» بدأت تتوالى الإعجابات

والتعليقات من صديقاتي ومتابعيني أغلقت حاسوبي وتركت قراءة التعليقات لوقتٍ آخر.

أمسكت بقلمتي وبدأت بكتابة ما كانت تسرده لي أُمي عن حياتها لأجمعها فيما بعد في كتاب.

الفصل الثاني:

الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون

صيف عام 1992:

جُوَّ حار، نسماثٌ وكأُتْها من أبواب جهنم تلفحُ الوجوه لتكفّر عنهم بعض الذنوب، أناسٌ يتخبطون في الأسواق، أصواتُ الباعة يعلو ويمتزج مع أصواتِ النساءِ اللواتي يجادلن على سعرِ حذاء أو بلوزة، رائحة المأكولات السريعة والحلويات تطغي على الأنفاس، سيارات تمشي ببطء سلحفأة الواحدة تلو الأخرى تنفث بدخانها ليضفي على الهواء رائحة محروقات، اختناق في اختناق.

في متجرِ الملابس الواقع وسطَ سوق الحميدية بدا أبو سعيد أكثر توتراً ونبضات قلبه باتت أكثر ضجيجاً مما يحدث في الخارج، تناول منديلاً من جيبه وبدأ يمسح قطرات العرق المتصببة على جبينه، فكّ ياقة قميصه ليتيح لبعض الهواء بالدخول إلى قصبته الهوائية، إذ بدأ يشعر بالاختناق وضغط دمه يتأرجح صعوداً وهبوطاً.

-أريد أن تساعدني.

قالها وهو يعبّ آخر سحبة من سيجارته ورمهاها على الأرض ساحقاً إياها تحت قدمه.

بنظرة حادة كان يرنوه أبو رائد، جالساً على كرسيه الجلدي وراء الطاولة الخشبية وأمامه أوراق وعقود شراء، يدٌ تعبت بالقلم على الطاولة، ويدٌ أخرى تهدّب طرف شاربه المنسدل على زاوية فمه.

-عليك أن تتحمل الدين وحدك، أنا لا علاقة لي بما فعلت، قمت بشراء أطنان من القماش من حلب ولا تملك ثمنها وكتبت سندات

مالية عليك وتعلم مسبقاً بأنك غير قادر على سدادها، لو أنك أخبرتني لشاركتك بها وما أوقعت نفسك في هذه الورطة.

ازدرد ريقه أبو سعيد، وبدأ يفرقع بأصابعه وصوت احتكاك العظام بات يثير الاشمزاز.

- ساعدني أرجوك، أنا في ورطة لا أستطيع أن أؤمن المال في وقت قصير وما إن تنتهي المهلة حتى أرح في السجن، هل ترضاها لصديقك؟

ابتسم أبو رائد وبدأ يربت بيده على كتف صديقه، ثم قال له متصنعاً الحزن:

-تعلم بأني لو كنت أملك المال الكافي لسددتها عنك، ولا أقبل طبعاً بأن يمسكك السوء لكن عندي لك حل لربما ينقذك.

تحمّس أبو سعيد لسماح ما عند صديقه من حلول لينتشله من ورطته التي وقع بها، وينقذ تجارته التي دخل فيها دون أن يحسب لهذا اليوم، ظناً منه بأنه قد قام بتجارة العمر وبأن ثروته ستقفز عالياً بوقت قصير، لكنّ البضاعة قد كسدت في السوق ولم يتم بيعها ليستطيع سداد ثمنها، لأنّ أبا رائد قد قام بخفض الأسعار على بضاعته التي ضاربت على بضاعة صديقه وذلك على الرغم من أنّه قد أظهر له السعادة وتمنى له تجارة لا تبور، أما في الحقيقة كان يحفر له بعد أن أطلعه أبو سعيد على كل الأسعار فاستغلّ الفرصة وعرف أين تكمن نقطة الضعف في تلك التجارة.

قال أبو رائد: ليس لديك حل سوى أن ترهن بيتك وأملاكك لتتقذ نفسك من السجن وسأعفيك من أجرة المحل وما عليك من مالٍ لي لا أريده الآن حتى تبيع بضاعتك وتسد ديونك.

نفض أبو رائد من مكانه واحتضن صديقه متشكراً إياه، ممتناً له.

قام الرجل برهن البيت مقابل مبلغٍ من المال استطاع دفع بعض السندات وبقي عليه البعض ولم يتبقّ أمامه سوى عشرة أيام وإلا سيتم تقديم السندات المالية إلى المحكمة.

هرع إلى أبي رائد مرة أخرى طالباً منه المساعدة فلا يوجد غيره بين التجار يستطيع شراء البضاعة فهو يملك من المال الكثير بالإضافة إلى أن نصف محلات السوق ملكه ويقوم بتأجيرها جميعاً.

رفض أبو رائد شراء البضاعة وحتى جزء منها متدرعاً بأنه لا يملك سيولة، لأنه قام بشراء بيت لابنه، وبدأ يقدم لصديقه الحلول واحداً تلو الآخر والتي لم تكن تجدي نفعاً ولا تعينه على جمع المال.

بدأ يجول من تاجر لآخر يطلب منهم العون ولكن لا حياة لمن ينادي فقام ببيع سيارته وبقي أمامه ثلاث سندات مالية ليست بالمبلغ الكبير ولكنه لم يعد يملك من المال ما يكفي، فمرض الرجل ولازم فراشه فزاره صديقه أبو رائد وحينما دخل عليه أسرع نحوه وهو يحمل له باقة من الزهور قائلاً:

-ألف لا بأس عليك يا صديقي، لم أعهدك بهذا الضعف ما بك يا رجل قوي عزيمتك.

فأجابه أبو سعيد:

-لم يتبق سوى يومان وسيتم تقديم السندات إلى المحكمة وأنت تعلم لم يعد لدي ما يكفي من المال لدفعها وهذا البيت سأخسره بعد أن قمت برهنه، أصبحت على الحديدية وتلك البضاعة التي اشتريتها لا تحرك ساكناً على الرغم من أنها من أجود أنواع الأقمشة وأحسنها، لم أتوقع بأن تكسد هكذا في السوق.

ثم نظر إلى صديقه نظرة تودد ورجاء وأردف قائلاً:

-تستطيع انقاذي، لم يتبق من المال الكثير أرجوك اشتر بعضاً من الأقمشة بأقل سعر تريده، كما ترى أنا رجلٌ مريض ولا قدرة لي على مواجهة المحاكم ولا دخول السجن.

صمت أبو رائد لبرهة ثم وافق على شراء بعض الأقمشة منه ليستطيع سداد باقي دينه على الرغم من أنه كان باستطاعته مساعدته منذ البداية ولا يجعله يصل إلى هذه المرحلة حتى لازم الفراش وكأنه كان يقصد أن يُضعفه ويضعه تحت أمره وأن يُظهر له بأنه قد فضّل عليه وأنقذ تجارته وكان يضمّر في نفسه أمراً، فهو يريد تزويج ابنه البكر ورأى في ابنة أبي سعيد الفتاة الأنسب لصغر سنّها وجمالها ولا يعتقد بأنه سيعترض أبداً بعد ذلك.

تعافى أبو سعيد وعاد إلى متجره ومزاولة عمله واستطاع أن يبيع معظم الأقمشة بعد أن أخفض من سعرها وذلك كي يستطيع أن ينهض قليلاً على قدميه ويرفع الرهن عن بيته ولم يتبق أمامه سوى إيجار المتجر وبعض المال الذي قد اقترضه من صديقه الذي لم يكن يعلم كيف سيرد له الجميل.

ذات يوم في المقهى حيث جلس الصديقان يحتسيان الشاي وقت الظهيرة، تبادلوا الأحاديث عن عملهما ومشاريعهما القادمة، كان أبو سعيد أكثر هدوءاً يدخن سيجارته بكل شراهة وقد أنهى كأس الشاي فطلب له صديقه كأساً آخر.

-بالعافية أبو سعيد.

قالها أبو رائد وأخفى كلاماً كان سيكمل به إلى أن أشعل سيجارة ونفث الدخان من فمه وأردف:

-جئت بك إلى هنا لتتحدث بعيداً عن ضغط العمل وضجة السوق، فلي عندك طلب.

اعتدل أبو سعيد في جلسته وهو يهرس عقب سيجارته في المنفضة أمامه، متحمساً لما سيطلبه صديقه منه.

-تفضل قل، أنت غالي والطلب رخيص.

أمسك بكاس الشاي ورشف منه ملء فمه لكنه ما لبث أن ابتلعه بصعوبة وداهمه سعال كاد أن يخنقه بعد ما سمع ما أملاه عليه أبو رائد وذلك الطلب الذي أدهشه.

كان أبو رائد قد طلب يد ابنته نيفين لابنه رائد الذي يكبرها باثنتي عشر عاماً، وما كان على أبي سعيد إلا أن وعده خيراً.

بعض الخسارات تنم على التضحية بأحد الأشخاص لمجرد أنهم حُلِقُوا في هذا الوسط، الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون. كم سمعناها ولم نعلم كيف يضرس الأبناء من حصرم لم يتذوقوه، لكنهم يتجرعون حموضته مطبقين الأفواه بصمت أو لا يستطيعون الرفض حتى، لأنه قدرٌ قد وقع ولا مناص منه.

اعتاد أبو رائد الكسب دائماً وكأنه ورث عن أجداده الإقطاعيين الذين مكثوا في الشام زمناً حب الامتلاك وحب الوقوف فوق خسارات الآخرين لم يكن امتلاك المال والعقارات هوايتهم بل امتلاك الفتيات دون النظر إلى رغبتهن وكأنهن دمي فقط يسقن إلى قدرهن دون اعتراض.

عناق حار دام لأكثر من نصف ساعة مع دموع بللت الأكتاف، نشيج ونحيب يملأ صدر نيفين الفتاة ذي السابعة عشر ربيعاً بعينيها الزرقاوين اللتين تخضبتا بلون الدم من كثرة البكاء.

-لا أريد ترك المدرسة يا أمي، ولا أرغب في الزواج، أرجوك تحدثي مع والدي.

ضممتها والدتها أكثر إلى صدرها وهي تمسح على شعرها الذهبي المتموج ثم مسكت رأسها بكلتا يديها ورفعتة عن كتفها وجعلته قبالتها، حرارة دموع نيفين انسابت فوق أصابعها وهي تلمس الخدين وتمسح عنهما الدموع.

-هدئي من روعك حبيبي، أنت فتاة قوية، كل شيء سيكون على ما يرام لا تقلقي.

لا شيء لدى أم سعيد لتقوله لابنتها، لا شيء يغير القدر الذي يرسم مستقبل نيفين المنتظر.

كانت خطبة رائد من نيفين برغبة من والدها، فعندما طلبها منه أبو رائد في ذلك اليوم في المقهى، لم يستطع أبو سعيد أن يرفض أو أن يؤجل التفكير في الأمر، بل أعطاه وعداً أن يُعلم أهل بيته ويُجهز ليوم الخطبة، لم يهتم لرغبة نيفين في اكمال دراستها ولا لعدم رغبتها في الزواج، ضارباً بمشاعرها عرض الحائط، قائلاً بأنه أعطى كلمة للرجل ولن يتراجع، وبأنها فرصته الذهبية في مصاهرة أكبر تاجر في الشام وبأن ابنته لن تجد زوجاً مناسباً ولا بيتاً يحقق لها أحلامها كبيت أبي رائد، علاوة على أنه مدين له بالكثير فكيف سيرفض أو أن يفكر مجرد التفكير بالرفض أو القبول، فالقبول أمر محتوم وكأي بضاعة يطلبها أبو رائد من صديقه ويأخذها دون أي مقابل كانت نيفين كذلك لكنها بضاعة من لحم ودم ومشاعر.

بعد اسبوعين من الخطوبة وفي المساء حيث اختبأت الشمس وراء الأفق، ومنحت السماء لونا قاتماً من حمرة فاتنة كأحمر الشفاه الذي صبغ شفتي نيفين بفستانها الأبيض وشعرها الذي رُفع خلف رأسها بزركشة أبدعت بصنعها مُزينة الحارة، والليل الذي حلّ فوق جفونها تستظلّ بهما زرقه بحر عينيها عاكساً وجه رائد بيزته السوداء الأنيقة وهو يقف أمامها متأملاً ملامحها بشغف، وكأن لعينيه أفواه ثغرت وكادت أن تلتهمها لفرط جمالها.

كان قلبها يخفق بقوة، ترتعد أوصالها، مصابة بغصة هستيرية استقرت في حنجرتها منذ أن حُطبت لرائد مما جعلها تعزف عن الطعام فبدا جلياً على وجنتيها اللتين شحبتا لكنهما لم ينقصا من جمالها شيئاً.

-ما أجملك، أنت عروسي لا تخجلي.

ارتبكت نيفين وأشاحت بوجهها عنه، ونفرت من عينها دمعة، التقطها رائد بإبهامه واضعاً راحة يده على خدها وأصابعه بدأت تنساب على رقبتها.

- سأمنحك حباً أبدياً، لا تبكي، أنتِ زوجة رائد ابن أبي رائد الشامي أكبر تاجر في سوق دمشق، ارفعي رأسك وابتسمي، سأجعلك أميرة تحسدها كل فتيات الشام.
أحاطها بكلتا يديه وضمها.

مرت الأيام الأولى من حياة نيفين الجديدة وهي تحاول أن تتقبل ما هي عليه، وأن تحب زوجها الذي أظهر لها الكثير من الود ووعدا بتلبية كل رغباتها وأن يجعلها دائمة الابتسامة، وفي ذلك المساء حينما جلس العروسان على الشرفة يتأملان ضوء القمر شعرت نيفين براحة تتسلل إلى دواخلها وباطمئنان يحيط بها سألها رائد حينها عما تحبه ويجعلها تشعر بالسعادة فأجابت:

- لن أخفي عنك بأني كنت أحب دراستي كثيراً وكنت أطمح لإكمالها ودخول الجامعة لكنني رضخت لرغبة أبي وها أنا صرت في بيتك.

قاطعها رائد بقوله:

- لا بل صرتي ملكة في بيتي، أكملني.

داعبت خصلات شعرها الذهبية بنوع من الدلال وقالت:

- بما أني لن أذهب إلى المدرسة ولن أدرس بعد اليوم، وخسرت ما كنت أطمح إليه أريد أن أطلب منك طلباً.

- أنت لم تخسري ولن تخسري ما دامك زوجي أنا، اطلبي وتمني.

احمرّت وجنتا نيفين خجلاً صممت لتجمع أنفاسها المبعثرة ثم أردفت تقول:

- أريد أن تخصص لي ركناً في البيت لأجعل منه مكتبة صغيرة أضع فيها كتباً، من أجل أن أقضي وقت فراغي في قراءتها، فسأكون سعيدة بذلك.

ضحك رائد وقال:

- أنت غالية والطلب رخيص، سيكون لك ما تريد.

فرحت نيفين لما وعدھا به زوجها، كطفلة حصلت على دمية في يوم العيد ورائد الذي كان سعيداً بها معجباً بجمالها وصغر سنھا، وكأنھا هدية بشریط أحمر لم يمسها أحد غيره ولم تر الحياة وتعاركھا وتعرف خبثھا أو أن یمس الحب قلبھا من قبل، فهذا ما كان يريده رائد وما يسعى إليه معظم الشباب في تلك الأيام.

كان الحب خجولاً يختبيء بيت حارات الشام ووراء نوافذھا وخلف أبوابھا موسوماً بزهورھا وياسمينھا، يرتوي من نھر بردى وسواقي الماء التي كانت تنحدر في غوطتها لتسقي بساتينھا، كان الحب نقياً صافياً كنفاء سماء الشام، لكنه كان كضوء شمعة سرعان ما يُخمَد بسبب العادات والتقاليد، وكأنه أنثى في عصر الجاهلية سرعان ما تواد قبل أن ترى النور وتكبر كي لا تجلب العار، لذلك كان من يحب ويحظى بمن أحب شجاعاً مقداماً لأنه استطاع أن يتحدى العادات في أن تختار أمه له عروسه ولا يراها سوى في ليلة العرس فالحب للأبطال كما يقال والجنباء تزوجهم أمھاتھم.

والبعض كان يتخلى عن أحبھا قلبه ليرضخ لاختيار أمه بعروس رأت فيها المواصفات التي تعتقد بأنها تناسب بيت العائلة، وباعتراده بأن من أحبته ستحب غيره ويبدأ بالبحث عن فتاة لم يمسّ الحب قلبھا، وهو لا يعلم بأن من اختارتھا له النساء قد تعلق قلبھا بغيره وقد فُرض عليها هذا الزواج الذي لا تستطيع الاعتراض عليه ولا النقاش فيه فتساق إلى زوجها جثة بكفن أبيض وبعدها إما أن تنسى أو تتناسى وتركن إلى زوجها وأولادھا وتدفن في قلبھا حباً قد نبض في قلبھا دون أن تتجرأ على البوح به.

وإن كان الشاب وفيماً وأراد الزواج بمن أحب يقف له الأهل والأقارب عائقاً فإما أن ترفض أمه بحجة أنها لا تُدخل إلى بيتها فتاة عرفھا ابنھا من قبل وترى في ابنة الجيران عروساً مناسبة له، أو أن يعارض أهل الفتاة وبشدة لأنھم لا يرون فيمن أحب ابنتھم شهامة ولا يستحق أن يكون زوجاً لها لأنه طرقت قلبھا قبل باب بيتھا ولأسباب تجهلھا الفتاة ويحتفظ بها الأهل يتم الرفض وعليھا أن ترضخ وتقدم قلبھا كبش فداء لإرضاء رغبة أهلھا وهم بدورھم لا يكونون مدركين حجم الكارثة ولا بتلك السنوات التي ستعيشھا ابنتھم دون مشاعر كآلة لإرضاء زوجها وانجاب الأطفال فقط، فرياح القدر لا تجري بما تشتهي سفن الحب.

غالباً ما كان الأهل يبحثون عن فتاة سالحة لابنهم الطائش، ظناً منهم بأنها ستقوم سلوكه، لكن ما لم يصلحه الأهل كيف تصلحه امرأة؟ إن لم يكن في داخله رغبة في أن يتغير ويسلك طريق الصلاح، وكما يقال: إنك لن تهدي من تحب إن الله يهدي من يشاء.

لذلك كانت نيفين ضحية زواج أثقل كاهلها بالهموم، وقتل أحلامها وساق بها إلى حيث لم تكن أن تدرك يوماً.

الفصل الثالث:

الرسالة

صباحٌ ربيعي دافئ، خيوط الشمس تنسل من وراء النافذة، فنجان القهوة الساخن على الطاولة، فتحت حاسوبي، رسالة مسنجر قد وصلتني: «كيف لقلب أن ينبض دون حب» تجاهلت مرسلها وعدت إلى النص الذي نشرته البارحة.

تعليقات عدة منها ما اختصر إعجابه بكلمة جميل، رائع، لكن أحدهم ترك تعليقاً:

«كاتبتهُ مثلك حينما تحبّ ستجمع أنهار العالم كلّه في كأس ماء.»

-ياالهي ما هذا الصباح؟

الكل يتحدث عن الحب وكأن لي موعد معه.

لم يرد إلى ذهني حينها بأن تكون وراء تلك الكلمات ولا بأنك قد تسللت إلى متصفحني لتقرأني وتحاول أن تعرف أكثر عني.

أغلقت حاسوبي، حملت حقيبتي وخرجت إلى عملي في الصحيفة.

كنت قد درست في كلية الإعلام في جامعة القاهرة وتوظفت في إحدى الصحف، المهنة التي طالما كانت تستهويني وحققت حلمي فيها، وفي العمل كنت قد تعرفت على أصدقاء كُثر لكن وبسبب

بعض الظروف والمنافسة بيننا حافظت على صداقة اثنين منهم فقط، زياد شاب فلسطيني هادئ ورزين، متوسط الطول ذو شعر أسود، عيناه تعلوهما نظارة تزيده وسامة.

لطالما كان بين حروفه خجلٌ أشبه بخجل البنات، لكنني كنت أحترمه كثيراً، كنت أخبره بأنه أخي الذي لم تده أمي لكنه كان يضحك ويقول لي كيف سأكون أختاً لفتاة عنيدة مثلك.

لورين ابنة بلدي، صديقتي منذ الطفولة ولعائلتها فضل علينا حيث احتوتنا أنا وأمّي حينما لعبت الأقدار بنا، وغادرتنا معهم إلى مصر.

لورين فتاة أنيقة قوية الشخصية لكنها طيبة القلب صادقة، ما يميزها عني وأغبطها عليه هو أنها عاشت بين كنف والديها، ولديها أخوة وأخوات على العكس مني، كانت مرحة، تحب الضحك، جادة في المواقف التي تتطلب ذلك، جميلة الطلة، حنطاوية البشرة.

لم أكن أخبرني عنها أي شيء، ولا حتى أصغر الأمور، حدثتها عنك وعن لقائي بك في المكتبة وعن الحديث الذي دار بيننا وعن ثقافتك التي تميزك عن غيرك من شباب اليوم.

حينها صفعتني قائلة:

-ويحك، شاب بتلك المواصفات كيف لا تتعرفين على اسمه، ولا حتى وافقتي على رؤيته مرة أخرى، ليتني كنت أنا لأعطيته رقم هاتفي بسرعة.

«هل يرتب لي القدر موعداً معك في وقت آخر؟»

كانت كلماتك تطن في رأسي كناقوس، كيف سأراك مرة أخرى؟، لا أنكر بأنها نبئت في داخلي زهرة الفضول للتعرف عليك ولقائك، وفي ذات الوقت كنت أحاول اقتلاعها من جذورها والالتفات لما هو أهم من ذلك.

كانت الأيام تمر بسرعة وكأنها تركب عجلة الزمن دون هوادة، وكان عليّ الذهاب إلى المكتبة لأعيد ما استعرت من كتب ولأنتقي كتب جديدة.

دخلت المكتبة، عند الباب تذكرتك، خفق قلبي واخترقت حواسي رائحة عطرك التي كانت تفوح في المكان، ملأت رئتي بالهواء المعطر ما جعلني أغمض عينيّ حاملةً بملامحك، وحينما فتحتهما على حين دهشة، وجدتني ماثلاً أمامي، نظرت إليك، فغمزني دفتاً ابتسامتك.

لم أكن أصدق عينيّ بأني أراك، هل كان القدر من رتب لنا هذا اللقاء مرة أخرى؟

لملمت ارتباكي ودهشتي، وأسرعت إلى صاحب المكتبة لأعطيته الكتب رحب بي قائلاً:

-أهلاً بعاشقة الكتب.

ضحكت وقلت له:

-عاشقة الكتب ؟ لأول مرة تناديني بهذا اللقب عمي كرم.

-لا لست أنا من أطلق عليك هذا الاسم بل ذاك الشاب، مشيراً بيده إلى زاوية المكتبة حيث كنت تجلس على إحدى الطاولات المخصصة للقراءة، شهق قلبي على حين لهفة غير مصدقة.

نظرت إلى العم كرم وسألته:

-ومن هو ذا؟ وما علاقته بي ليلقبني بهذا الاسم؟

ضحك العم كرم ضحكة كشفت عن أسنانه المتآكلة وازدادت خطوط عينيه عمقاً.

-اجلسي لأحكي لك.

أخرج من الجارور أمامه ظرفاً وبداخله رسالة، ناولني إياه ثم قال:

-بعد أن انصرفت تلك الليلة من المكتبة، جاء إليّ ذاك الشاب وسألني عنك وألحّ أن يعرف اسمك، بات يتردد كثيراً إلى هنا

ويقضي ساعات في الليل على تلك الطاولة يقرأ ويكتب، حتى جاء اليوم وسلمني هذا الظرف وطلب مني إعطائك إياه إذا جئت.

قدم لي فنجان قهوة وهو يتابع حديثه وأنا أصغي إليه دون أن أنبس ببنت شفة، انتابني شعور غريب لم أشعره من قبل والظرف بين يدي أتأمله وكأنه هدية ثمينة لم يسبق وأن أرسل لي أحدهم رسالة ورقية في زمن الرسائل الإلكترونية التي كانت تصل وأعرف فحواها لمجرد فتحها، لا ألمسها ولا أشمها، أما رسالتك لمسها قلبي قبل أن أفتحها، رائحتها العطرة، محتواها الذي باتت كلّ حواسي ترغب بمعرفتها وقرائها.

أيقظني عقلي من شرودي، شكرت العم على القهوة ووضعت الظرف جانباً على الطاولة ثم قلت له:

-غريب أمره، لا أعرفه ولا يعرفني، ما الذي جعله يكتب لي، جرى حديث قصير بيننا في ذلك اليوم لا أكثر.

لكن العم كرم كان لديه كلام آخر، حينما أخبرني بأنك تفاجأت حينما علمت باسمي وكنيتي فأخبرته بأنك قريب لي، وبأنك تبحث

عني منذ زمن، وحينما تأخرت في عودتي إلى المكتبة تركت لي رسالة.

كانت عيناك تراقبني من خلف الكتاب الذي بين يديك وكأنك تنتظر مني أن أتقدم نحوك وأتكلم معك، لا أنكر بأن قلبي كان يحثني على ذلك لكنني في ذات الوقت كنت أصرخ فيه أن تعقل.

لا أعلم لماذا لم تتقدم نحوي يومها وتحادثني، لا أعلم لماذا اكتفيت أن أستلم رسالتك وكأنك وضعت لي فيها طعماً وكنت واثقاً بالتقاطي له واصطيادي.

تركت الكتب على الطاولة وأخبرت العم كرم بأني سأعود في وقت لاحق، حثني على أخذ الظرف معي قبل أن أغادر فوضعتني في حقيبتي خلسةً عن ناظريك وذهبت.

في البيت وعندما دخلت إلى غرفتي لكي أنام أخرجت الرسالة وبدأت بقراءتها:

عزيزتي سارة الشامسي: ستتعجبين لماذا أكتب لك، ونحن لم نتعرف على بعضنا بعد، لطالما كنت أوّمن بالتقاء الأرواح وعشقها لبعضها وتآلفها قبل أن تلتقي الأنفس، فأرواحنا التقت منذ سنوات.

لقد كان لاسمك حينما أسمعه أثراً عميقاً في نفسي، يُحدث في داخلي إحساساً جميلاً، ومنذ سنوات ولدي الفضول لأتعرف عليك حتى حكمت عليّ الحرب أن أغادر بلدي وبات البحث عنك كالباحث عن ابرة في كومة قش، وجدت حسابك على الفيس بوك مصادفة فبدأت بمتابعتك وقراءة حروفك فازداد اعجابي بك أكثر ولم أكن أعلم كيف سأخترق حصنك وأكسر حاجز الصمت وأحدثك، كنت أخشى أن أقابل بالصد من طرفك، أرسلت لك رسالة ع المسنجر لكنك لم تجيبي علي، حتى رمى بنا القدر على باب المكتبة لألتقيك، لو تعلمين مدى سعادتي لأنني عثرت عليك، حينما حدثتك ونظرت في وجهك شعرت باللفة غريبة وكأني أعرفك منذ زمن، لذلك لم أتمالك نفسي في السؤال عنك وكنت أنتِ سارة، ضالتي التي لطالما حدثت نفسي كيف سأقابلها وهل يكتب لي القدر لقاءً معها، حتى ساقنتي الأقدار إليك.

فكتبْتُ لكِ هذه الكلمات علكِ إن عدت تحظى بقراءتك لها، وأكون أنا قد حظيت بالوصول إليك، سأخبرك من أكون إن قمت بالرد على رسالتي فأنا لست غريباً عنك.

ابراهيم

كنت أقرأ الرسالة وقلبي ينبض مع كل كلمة، وأحاسيس في داخلي لم أشعر بها من قبل، لكنني حاولت أن أطردها جميعاً ومنعت نفسي أن أثق كثيراً بك، فتشت جميع منشوراتي وتعليقاتك عليها حتى رسالتك التي تجاهلتها، لم أعلم لما كنت أشعر بأنك شخص فضولي، لكنني بعد أن عرفت بأنك هو صاحب هذه الأحرف تغيرت نظرتي، لم أستطع حينها أن أكتب لك شيئاً أو أن أسمح لنفسي الخوض في معرفتك، ولم أصدق مقولتك بأنك قريب لي لأني لا أعرف أحداً، فأهملت الرسالة والرد لأيام وتابعت حياتي متناسيةً أمرك.

لا أخفي عليك أمراً بأني لمست فيك اختلافاً عن كل من قابلتهم في حياتي مذ أن ألتقيتك لأول مرة، حتى عن زياد الصحفي الذي يعمل معي في الجريدة وعلى الرغم من اهتماماته وثقافته إلا أنه لم يكن مهتماً بقراءة الروايات مثلي.

كان يهتم بي بشكل مبالغ، يقوم بدعوتي يومياً على القهوة، يختارها لي سادة كما أحب، يسألني عن آخر رواية قرأتها لا لأنه يحب المطالعة بل ليجعلني أتحدث وهو ينظر إليّ مبتسماً، وما إن أنهي حديثي عن أبطال الرواية وأنا متحمسة حتى يضحك ويقول:

-يا لك من فتاة مجنونة كيف تؤثر رواية بأبطال خياليين على عقلك ومشاعرك، أنت فتاة حساسة للغاية، لكن لن أقتنع وأن أقرأ شيئاً لا يمت للواقع بأي صلة، لن أضيع وقتي بكتب لا فائدة منها. كنت أغضب لحديثه وأعزم على ألا أحدثه ثانيةً عن أي كتاب قرأته، لكن ما إن يسألني حتى أخوض في حديثي دون أن أشعر.

كان واقعياً يهتم بالحدث الذي سيكتبه ويحقق به سبقاً صحفياً، منطقياً جداً حتى أنه لم يكن مهتماً بالشعر وكتابته وهذا ما كان يختلف به عنك وما كنت أحبه فيك دون سواك.

الفصل الرابع:

وتمضي الأيام

بدأت الأيام تمضي سريعاً، رائد يقضي أغلب الوقت في المتجر، نيفين في منزلها باتت تقضيه في ركن القراءة ، تدخل إلى المطبخ قبل موعد عودة زوجها بساعتين، تقف حائرة لا تعرف ما تصنع، فهي لم تتعلم فنون الطبخ بعد، ولا كيف تمارس دور الزوجة الماهرة، كانت تتصل بوالدتها لتسألها عن مقادير طبخة ما، أو تستعين بمحباتها التي تتأفف منها لعدم معرفتها لشيء من أمور المطبخ ، كانت تخطئ كثيراً، تحاول، تضع المقادير كما تخبرها أمها، تزيد ملحاً أو تنقصه، تخرج من المطبخ حاملة معها وجبة أعدتها بشق الأنفس، تجهز المائدة لزوجها حين قدومه، يضع الصحن أمامه ويسكب فيه من الطبق الذي أعدته زوجته، يمتعض قليلاً للطعم الغريب أو لزيادة الملح، فيتناول وجبته مع الكثير من الماء أو العصير دون أن يتكلم، تشاهده نيفين وهو يتناول طعامه بشراهة، تبسم، شعور الرضى يدخل إلى قلبها تسأله إن كان لذيذاً، فيكتفي بهز رأسه، وما إن ينتهي يخبرها بأنه كان شهياً وبأنها في المرة القادمة ستكون قد أتقنت صنعه بشكل أفضل.

أهداها مرة كتاباً لتعليم الطبخ، أخبرها بأنه سيكون مفيداً لها وطلب منها أن تجعله في مقدمة قراءاتها خيرٌ من قراءة باقي الكتب.

في الحياة الزوجية في بادئ أمرها تغيب فيها بعض المسؤولية، تغلب الشهوة عليها، يكون الحوار كثيراً، وعودٌ تحت خمرة الحب، يخيل إلى كلاهما بأنهما غرقا في بحر السعادة الذي لا ينضب، لا شيء يعكر صفوهما، ثم بعد ذلك تبدأ الأحاديث تقل حتى تكاد تختفي، وفي بعض الأحيان يبدأ ذلك من طرف الزوج عندما يعود إلى ممارسة عمله ويعود متعباً إلى البيت والزوجة ما تزال ترسم في مخيلتها أميرها الذي سيعود مغالزاً مداعباً مازحاً كما كان في ليالي العسل، فتتلقى صدمات البرود والصدِّ وواقع الحياة العملية، تكون في كامل زينتها لكنها لا تتلقى ذات المديح الذي اعتادت سماعه، فتشعر بالخيبة والحزن الشديد، فلا تستطيع أن تبادر بأي شيء دون مقابل، ولا أن تعطي دون أن تأخذ ولا أن تشعر بالرغبة لزوجها دون أن يبادرها ولو بكلمة لطيفة تزيد من ثقته بنفسها وتُشعرها بأنوثتها حتى ولو كانت تعلم بأنها جميلة، لكن غريزتها تخنها لأن تسمع المديح من الرجل وكلمات الحب والاهتمام واللين اللوات هنَّ وقود لها، فبدونهن تنطفئ.

وهذا ما حدث مع نيفين بات البرود يحول بينهما، هي تنتظر منه الاهتمام وهو ينتظر منها الاقبال عليه، فغدا حينما يعود من العمل وحين الانتهاء من طعام العشاء، يجلس رائد على أريكته ويديه جهاز (الريموت كونترول) يقلب به قنوات التلفاز، يشاهد أفلاماً، يتابع مباريات، لا يبدأ بأي حديث ولا حتى ينظر لنيفين ولا يسألها عن يومها، تنظر إليه وهو لا يعطي لها بالاً، تحاول أن تفتح حديثاً لتكسر جو الصمت الذي يجيم على المكان، تبدأ بحديثها عن قصة قرأتها أو بطلّة رواية قد أعجبتها، فيشير لها بيده دون أن يلتفت إليها بأنه يريد أن يستمع للمذيع في نشرة الأخبار، تصمت، تقوم وتمشي في أرجاء البيت، تذهب إلى ركن القراءة فتجلب معها كتاباً وتعود إلى مكانها، تقرأ ولا تقرأ يشرد ذهنها.

كانت تتمنى أن ينظر إليها، أن يبدي إعجابه بتسريحة شعرها، أن يتغزل بعينيها كمان كان يفعل في بداية زواجهما، أن تحكي له كيف كسرت صحناً وهي تغسله وكيف أطعمت عصفوراً كان ينقر على شرفتها وكيف مرّ يومها وحيدةً بدونه، كيف اشتاقت لأمها وتريد أن تدعوها إلى منزلها أو أن تذهب لزيارتها، لا تعلم كيف ستتكلم وهو الغائب الحاضر، وحينما يحين موعد النوم، يأوي إلى فراشه منتظراً إياها أن تجاوره. تختنق وهي تعلم ما ينتظرها، تشعر بنفور من ذاك الفراش كقبر الأموات لا حياة فيه، تواجه واجبها بقرف.

ذات يوم في المتجر، سأله والده عن حاله مع زوجه بعد أن لاحظ عليه شروده، فقص عليه ما يجري، ضحك والده كثيراً ثم قطب حاجبيه واضعاً يده على كتف رائد يربت عليها وانحنى يهمس في إذنه:

- كن رجلاً، عاملها بصرامة، وإن لم تغير من نفسها عندي حل، سأخبر أهلها، وإن اضطرت لأن تضرب اضرب، دعها تهابك، ليست صغيرة وليست في بيت أهلها لتدلل نفسها وتتصرف مثل الأطفال، أصبحت امرأة راعية بيت ونحن ننتظر أولادك، كيف ستربي وهي بهذه الصفات.

تغيرت ملامح رائد وكأن كلام والده قد أعجبه، كان ما يزال يتعامل معها بلين، إلى متى هذه الحال؟ قالها في نفسه: أريد أن أصبح أباً.

في إحدى الليالي تأخر رائد خارج المنزل، التأخير الذي اتخذته عادته منذ مدة، وفي أثناء غيابه كانت نيفين تقضي ليلتها تقرأ حيناً وتكتب حيناً أخرى، يشرد ذهنها بزوجه الذي فرضت عليها الحياة أن تعيش معه، تتمنى أن يستمع إليها كلما أرادت البوح، أن يشاظرها مشاعرها في حزنها وفرحها، أن يكون سكناً إليها، لقد اختلف معها اختلافاً كلياً عن أيام الزفاف الأولى، لا تريد منه غزلاً صريحاً ولا مديحاً دائماً كل ما تريده

أن يتحدث معها، أن يستمع، أن يتنسم، أن يشعرها بالود والحب، كانت تملك طاقة حب كبيرة في قلبها، أحاديث كثيرة، ضحكات تكتمها، لو سححت لها الفرصة لأطلقت ضحكاتنا حد البكاء، باتت تعيش في خيالها مع أبطال رواياتها تبكي لحزنهم وتضحك لفرحهم، باتت تحدثهم وكأنهم أصدقاء حقيقيين، وفي نهاية كل رواية كانت تكتب لهم رسائل تضعها بين أوراق الكتاب، تعيش في عالمها خيالاً أوسع من واقعها الذي تعيش فيه، وحينما تصحو من خيالها على صمت زوجها أو ربما على صراخه في وجهها وتذمره من تصرفاتها الصبانية واحتجاجه بأنها لا تقدم له حقوقه كاملة، حقوقه في فراش الزوجية الذي كانت تهرب منه كلما سححت لها الفرصة، لا تستطيع أن تقدم دون أن تأخذ، وماذا تأخذ؟

كلمات فقط، أحاديث، أن يسألها عن حالها وعن ما يؤلمها، هي ليست جسد فقط، هي كتلة مشاعر، فكانت تدخل في حالة اكتئاب لا تستطيع البوح به لأحد، لا لأمها ولا لأخواتها ولا حتى زوجها نفسه، من سيفهمها بل ربما سيلعنونها أو يتهمونها بأن قلبها معلق برجل آخر، فتذبل ملامحها الجميلة ويسكن الليل تحت عيونها.

ذات مرة ولأنه وجدها نائمة على الأريكة في ركن القراءة أيقظها بصوته العالي موبخاً، أمسكها من شعرها وجرها إلى غرفة النوم عنوة وهي تتوسل إليه أن يتركها تمشي وحدها؛ كسجان يجر متهماً إلى سجنه، قال لها بأنه لا ينفع معها سوى هذه الأسلوب؛ أن يأتيها عنوة، فهو رجل ولديه متطلبات وهي أنتى أشبه بقطعة خشب كما يقول.

وفي تلك الليلة حينما عاد فجراً، كانت نيفين تنام على الأريكة حيث داهمها النوم وهي في انتظاره، دخل وهو يدندن أغنية علققت في رأسه بكلمات غير مفهومة يترنح يميناً وشمالاً بخطواتٍ متناقلة حتى وصل إلى حيث تنام زوجته، بدأ يرمقها بنظراته ثم جثا على ركبتيه أمامها وبدأ يمرر أصابعه على وجهها، فانتفضت مرتعبة وما إن رآته حتى احتضنته وهي خائفة:

-لقد أخفتني يارائد.

تسللت إلى أنفها رائحة عطره الواخزة مع أنفاسه الممزوجة برائحة النبيذ والدخان، ابتعدت عنه وهي تغلق أنفها بأصبعها فائلة:

-رائحتك غريبة، كما أن عينيك حمراوان، لست على ما يرام.

قهقهه ضاحكاً ورمى بنفسه على الأريكة بجانبها وهو يدمدم بكلمات أغنية بلسان ثقيل.

كانت تلك الليلة أول ليلة منذ زواجهما يعود إليها ثملاً بعد أن اعتاد السهر والشرب قبل الزواج وقد زوجه والده أملاً في أن يستقيم.

نيفين تنظر إلى زوجها المخمور نظرات استغراب، إلى جسده المتهاك على الأريكة لا تدري ما تفعل، وهو ما يزال يدندن وكلماته تتناقل أكثر فأكثر ثم بدأ في البكاء.

اقتربت منه زوجته أكثر ثم أمسكت وجهه بكلتا يديها وقالت:

- ما بك يارائد، ما الذي حدث لك أخبرني.

كانت دموعه تنهار على وجهه بغزارة، وبدأت نيفين تبكي معه.

- أرجوك أخبرني ما بك.

نظر إليها بعينين كانتا تحكيان ما في داخلهما، أبداً ضعفاً ما أبداً من قبل، أطال النظر فيها ثم أمسك بها وأبعدها عنه، ثم أغمض عينيه وحمد جسده واستسلم للنوم.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة فجراً، نسيمات الخريف الباردة تهب في الأرجاء، بقيت نيفين على الأريكة تنظر إلى زوجها حتى شروق الشمس، يعتريها شعور غريب وأسئلة كثيرة تدور في خلدتها.

أين كان؟ ولم هو على هذه الحال؟ لم يسبق وإن عرفت بأنه يشرب الخمر وأن تراه هكذا، حتى أنها لأول مرة ترى رجلاً قد أذهب الخمر ليه.

الفصل الخامس

سجال الحب

في إحدى الليالي بينما كنت غارقة في الكتابة، بدأ صوت رسائل المسنجر على جهازي المحمول يأتي تباعاً، رسالة تلو أخرى وكأنها ملحمة لأن أستجيب لها وأن تحترق سكوني، وعندما نظرت إليها وإذ بها منك، لم أشعر إلا وببيدي تفتح الرسائل دون إدراك مني وبدأت أقرأ.

كنت قد بدأت كلامك بقصيدة نثرية خاتماً إياها باسمك، ما يدل على أنك قد كتبتها لي خصيصاً، كانت كلماتها منتقاة بعناية، مرسومة بحرفة شاعر محنك، كنت قد عبرت لي فيها عن حبك واضطراب قلبك من العشق ثم كتبت بعد قصيدتك:

-هل تنافسيني في الكتابة؟

كان سؤالك وكأنك تقول لي هل تنافسيني في الحب؟ كنت قد دخلت عليّ من الباب الذي يصل مباشرة إلى قلبي وكأنك قد اكتشفت مداخل قلبي المؤصدة وعرفت أي باب فيهن تستطيع اختراقه، وأنت لا غيرك من اكتشاف مفتاح هذا الباب.

بدأت في الرد عليك وقبلت النزال واثقة من نفسي ومن انتصاري مقدماً، قبلت التحدي ولم أعلم بأنك قد فتحت باب قلبي ودخلت إليه دون علمي وبأن حروفك قد حطمت مملكتي التي اعتقدت زمناً بأنها حصينة.

كنت تمطرني بالقصائد ولم يتسنّ لي أن أجمع حروفي النائية للرد عليك، كنت أكتفي ببضعة أبيات وأحياناً أخرى بقصائد، كانت كلماتي تخرج دون إدراك مني ودون استيعاب وكأن قلبي استلم مهمة الرد عليك بدلاً مني وحينما أصبح من خمرة الحب أقوم بالمناورة.

وعندما لاحظت بأن كلماتي باتت مختصرة، توقفت عن ارسال القصائد قائلاً لي:

-يكفيك هذا القدر، أشعر بأني أربكتك.

أجبتك:

-لا، أقصد ذهني مشوش لم تعطني وقتاً كافياً للرد عليك، وهل هكذا تكون المنافسة، هل هو ارتجال أم ماذا؟

كتبت لي:

-سارة.. هل قرأت كلماتي، هل فهمتي معناها جيداً؟

كنت أفهم ما تقصده وما تود إيصاله لي عن طريق قصائدك التي تحوي كلماتها حباً عظيماً، شوقاً لقبول حبك واحتوائه في قلبي، تحديّ لقلبي إن كان صادراً إليك، لم تكن توحى كلماتك على أنك تقبل الخسارة أو أن تعود كفيك خاوية.

كنت أردُّ عليك وأناور، أصدك بكلماتي وأحياناً أبادلك التلميح بالحب والإعجاب.

كتبت لك:

-نعم فهمت كل كلمة فيها، أنت شاعر حقاً وأجزم بخسارتي أمامك ربما أعلن استسلامي قريباً.

كتبت لي:

-سارة. هذه الكلمات لك أنتِ، فهمتي!

هذه المشاعر لك أنتِ.

على الرغم من أنني أعلم بأن كلماتك لي، لكنني ادّعت بأنها ليست لي.

-لا، لا أظن، إذاً هل ما كتبتة أنا موجّه لك؟

أنا فقط نافستك في القصائد وأحببت أن تكون رداً عليها لا أكثر.

صمتُ ساد بيننا لبرهة، حاولت خلالها أن أجمع مشاعري المبعثرة وأضم أصابع يدي التي خشيت أن تكتب لك دون إدراك، حاولت أن لا أطيل أكثر وأن لا أفتح لك الباب لتعترف أكثر، اعتذرت لك بسبب انشغالي في الكتابة، طلبت أن تتحدث إلي في وقت آخر، اقترحت يوم غدٍ عصرًا، فاعتذرت إليك مرة أخرى وقلت:

- لا أريد أن يصبح حديثنا روتيناً يومياً، أظن بأنه يكفي حديثنا لهذا اليوم، ربما نتحاور في وقت لاحق لكنني لا أعدك.

كتبت لي بعد أن صمتت لبرهة:

- كما تشائين لا أريد ازعاجك، لا أتعجب من تصرفك، أنتِ حتى رسالتي التي تركتها لكِ في المكتبة لم ترددي عليها، لا بأس سعدت بالسجال معك، أنتِ بارعة، كل التوفيق.

أنهيت حديثك بهذه الكلمات وطلبت الإذن بإغلاق الإنترنت، شعرت بانقباض قلبي الذي لم أجد له تفسير، حاولت طرد تلك الأحاسيس الغريبة التي خالجتني، حاولت صدّ حبك الذي طرق باب قلبي وبدأ يخفق لك رغماً عني.

بعد ذلك بدأت بمراسلتي كل يوم، ترسل لي باكراً تحية الصباح لأستيقظ على كلماتٍ منك، أقرأها وأبتسم وأوجل الرد عليها بعض الوقت حتى أنهض من سريري وأجهز نفسي للذهاب إلى الصحيفة، كانت رسائلنا تقتحم سكوبي في ساعات النهار ومختلف الأوقات حتى بدأنا نتعرف أكثر على بعضنا البعض كانت أسئلتك كثيرة، كنت تحب أن تعلم عني كل شيء، وحينما عرفتني عن نفسك فوجئت كثيراً، كيف للصدف أن تجمعنا هكذا وكيف ألفت بي في بيتك دون لقاءك وكنت أسمع باسمك وبعض الأحاديث عنك فتشككت في ذاكرتي صورة عن شاب جاد مختلف عن باقي أخوته، لكن الحرب في تلك الأيام لم تجعلني أفكر كثيراً بك ولا أصابني الفضول للتعرف عليك كما فعلت أنت حتى أنني نسيتك، لكن قضائي بضع ليالٍ في غرفتك وتلك السكنينة التي حلت بي والشعور الغريب الذي انتابني حينما رأيت صورتك، لم أجد له تفسير إلا بعدما وقعت في حبك، وبعد أن كلمتني شعرت بأنك قريب جداً مني وبأن روحي آلفت روحك منذ زمن، وحينما تحدثنا عن تلك الأيام أخبرتني بأنك كنت تنقل العائلات خارج المدينة هرباً من الحرب القائمة و كل مكان كنت أغادره كنت تحل به بعد أيام وكأنه مكتوب علينا أن نلتقي في الغربة، هكذا هي الحياة بمنطقها الغريب ترسم لنا أقدارنا كيفما شاءت، وتأخذ بنا إلى حيث تشاء، وترسم لنا أقدارنا دون أن يكون لنا يدٌ حتى في مصيرنا، فقط منذ أن حلت الحرب في بلادنا وحياتنا بيد القدر، يقود سفينتنا على هواه وماعلينا سوى الاستسلام والتسليم بالقضاء وبما كتبه الله.

كنت أحلم بأن أغدو صحفية، لأركب سهوة قلمي وأصل إلى حلمي في إيصال رسائل سامية وأتحدث نيابة عن المظلومين، ولم أكن أعلم بأن نكون نحن أشد المظلومين وبأن تلك المهنة لم تكن كما كنت أظن بتلك الشفافية والسهولة في بلادنا، وما كنت أعتقد بأنه كان محتملاً على الذين مثلنا أن يكتموا الأفواه مطبقين عليها أو أن يقيدوا بحبال التبعية لكبار المسؤولين ليكتبوا ما يلّمع صورتهم وما هو عكس الواقع وما ينفي قطعاً الحقيقة.

غدت تلك المهنة خطراً على صاحبها وطريقه الذي يصل به إلى غيابات السجن؛ إن خطّ قلمه كل ما يرى ولا أنسى تفاصيل تلك الأيام، في شهر آذار من عام 2011 غربت شمس الأمان وحلّ مطر غزير أنحك أرض الوطن وقسمت ظهره عواصف الطائفية وجعلت منه بصواعقها الحارقة أجزاءً وأشلاءً.

عيون الناس كانت ترقب بتوجس شاشات التلفاز وتشاهد أخبار الأيام الأولى من الحراك الشعبي السلمي ومن كان يعلم بأنه بداية مسلسل رعب طويل، تعرضه القنوات المحلية كأني فلم خيالي ومؤامرة كونية وقنوات أخرى تنقل ما يحكيه شاهد عيان اختلس بعضاً من الصور ولكن الواقع كان يحكي الكثير ولم يكن أحد يعلم بما يجري وراء الكواليس سوى الشعب الذي عاش تلك الأيام وذاق كل أنواع الذل والإهانة وقد كان قد خرج يحمل راية: «الشعب السوري ما بينذل»

«الموت ولا المذلة» فلي الموت النداء على عجل.

هل علم أحدهم حينها بكل تلك الإهانات والذل الذي سنتعرض له؟

وكأننا نطقنا كفرة فكانت عقوبتنا أضعاف ما كنا نرفضه، فلم يرأف أحد بنا ولا بدمشق ولا بسورية أجمع. كنت أعود إلى البيت بعد مشقة عبور الحارات المغلقة والكثافة الأمنية وكانت أمني تنتظري على أعصابها، بدأت تطلب مني أن ألزم البيت، لكنني كنت أرفض وكنت أرى بأني جزء من ذلك الحراك لا أن أخرج وأهتف بل أن أوثق كل شيء.

كنت أنا ورفاقي قد شكلنا فريق الصحفيين النشطاء وإن كنا بادئي العهد بتلك المهنة التي ما زلنا على مقاعد دراستها إلا أننا خضنا ساحة العمل سراً.

في بلدي بإمكانك أن تكون صحفياً وممرضاً ومنقذاً وشاهداً وشهيداً في آن واحد.

اضطربنا بعد فترة أن نغادر منزلنا إلى منزل آخر في حارة أخرى حينما تم اكتشاف أمرنا وقيدت إحدى صديقاتنا إلى أفرع الأمن، وخرجت بعد فترة تعاني من اضطرابات نفسية، وما زاد من سوء حالتها، نظرة أهل الحي لها وعلى رأسهم خطيبها الذي تركها بعد أن ضغط عليه أهله، حيث ينبغي أن يكون سنداً لها ويخفف عنها ما حل بها فاضطر أهلها إلى وضعها في غرفة لوحدها لتخرج من سجنها إلى سجن أشد قسوة وهي نظرة المجتمع لها، على الرغم من أنها لا ذنب لها إلا أنها فتاة جلبت العار على قوهم، ونسوا بأن الوطن اغتصب منذ زمن وما زال مغتصباً.

هل كنت لتتركني يا ابراهيم لو أنه حل بي ما حل بها؟

هل كنت ستنظر إليّ بازدراء واحتقار لو أنني تعرضت للتعذيب ولمس أحدهم جسدي عنوة؟

هل كنت لتجلدني بابتعادك عني كما فعل خطيبها، فكان تخليه عنها عقاباً يفوق بأضعاف مضاعفة ما تعرضت له في تلك الأقيية؟

وهل كان تخلينا عن سوريتنا وهجرتنا لها عقاباً لها، كما فعل أهالي المعتقلات وذويهنَّ بهنَّ؟

ربما ذنبنا كان أكبر يا ابراهيم، لكن سورية لم تعد قادرة على احتواء أبنائها لأن المغتصب جعل من جسدها هزياً ضعيفاً.

في تلك الليلة بكت أُمي كثيراً وهي تضميني بين ذراعيها وترجوني بأن أبتعد عن كل ما قد يسبب لي الأذى، كانت تخاف عليّ كثيراً وتقول لي لو تم اعتقالك سأموت حزناً.

خوف أُمي كان يضعفني كثيراً ورؤيتي لها والخوف يجثم فوق صدرها كان يقيدني ويجعلني عاجزة عن المضي في الطريق الذي رسمناه أنا ورفاقي لنقدم ما نستطيع تقديمه لبلدنا ولو بالقلم.

اضطرت أن ألزم البيت الذي آوينا فيه أنا وأُمي مؤقتاً لتنصرف عنا الأنظار وعكفت عن الذهاب إلى الجامعة لكنني ما دأبت أن أقوم بكل ما أستطيع القيام به ولو عن طريق الهاتف النقال.

إلى أن اختفى أحد أصدقائنا وهو في طريقه إلى البيت عائداً من عند صديقه عصرًا وحين حلول المساء افتقده أهله وبدأوا بالسؤال عنه كل من يمكنه أن يرتاد إليه، لكن الظلام ابتلعه كما ابتلع من بعده

الكثيرين، وكان أسياذ الظلام قد أذمنوا أجساد أولئك الشباب وباتت دماؤهم شراباً تسفك انتقاماً من كلمة حرية التي خرجوا مطالبين بها.

غدت أيامنا مرعبة ورائحة الموت تملأ الشوارع، لم يعد بإمكانني الخروج أو الذهاب إلى الجامعة، تقطعت بنا السبل حتى غادرنا بيتنا مرة أخرى، كانت وجهتنا إلى الغوطة الشرقية، كان لزاماً عليّ أن أتحدى بالقوة كي أمدح أمني بعضاً منها وأنا التي كنت في أمس الحاجة لكتفٍ لأتكئ عليها، لظهرٍ يسندني ويدٍ تأخذ بيدي، لكنني جاهدت لأكون سندا لها ولنفسي.

في الحرب يا ابراهيم لا وقت للحب، وكان الحرب تأتي لتجعل منا أشخاصاً أنانيين لا نفكر بتوسيع دائرة المعرفة، لا لشيء ولكن كي لا نفعج بفقدان من عرفناه يوماً، ونحن في كل يوم كنا نذبح على مقصلة الأيام في حرب اشتعلت ولم تنطفئ.

لم نعد نتمكن من إحصاء أسماء من قتلوا بل بتنا نحصي الأرقام لنوصلها إلى المنظمات، كما بتنا أرقاماً خلف القضبان بلا هويات ولا أسماء، حتى إن متنا كانت الأرض تبخل علينا بحفنة تراب تواري أجسادنا وقبر يضم رفاتنا.

في تلك الأيام لم أكن أفكر بأن أغادر الوطن على الرغم من سوء الحال الذي وصلنا إليه وحالة أمني النفسية باتت تزداد سوءاً كلما سمعت صوت طائرة حربية أو أصوات رشقات الرصاص التي باتت سماعها أمراً اعتيادياً كزقزقة العصافير.

حتى الأخبار باتت مقلقة لها جداً إلى أن جاء ذلك الصباح الذي استيقظنا فيه على غارات جوية وكان الموت حينها شرساً بلا دماء لكنه حصد أرواح الكثيرين فغدا الهواء محرماً علينا.

شهدتُ موت الأطفال اختناقاً، كنت من بين المسعفين، كانت الأرواح تخلق من حولي وأجساد الأطفال تنتفض كعصافير مذبوحة وكنت أذبح مع كل جسد تنطفئ فيه الحياة.

من شهد الموت يا ابراهيم تموت الدنيا في عينه وأنا ماتت الدنيا في قلبي منذ زمن وجئت أنت لتبعث في نفسي الحياة وكأني أبصر الدنيا بعينين غير اللتين شهدتا كل تلك الكوارث.

فأحببتك بكل حواسي حتى بات قلبي يلتقط كلماتك ويخزنها في الذاكرة، شعرت بأني وجدت ضالتي أيضاً، الرجل الذي سأنتقاسم معه أفكاره، لطالما ابتعدت عن كل الرجال الذين يختلفون عني، والذين يعجبون بي لمجرد أنني ذات عينيّن جميلتين، كنت أتجنب كل الرجال لأنني أراهم لا ينظرون للمرأة إلا على أنها جسد فقط لا روح، أما أنت فقد شعرت بأنك مختلفٌ عنهم.

ذات مرة قلت لي: هل تقبلين أن تكوني روحاً لروحي؟

وهل الروح تطلب من ذاتها أن تلازمها؟ وأرواحنا التقت قبل أن نلتقي، كيف لي أن أقول لا، وأنا أشعر بأني لا أرى في هذه الدنيا إلاك.

كنت أتحدث بعكس ما في داخلي، كنت أخشى الخوض في حبك، بل كنت أخشى الحب ذاته بالرغم من أنني لم أتورط فيه من قبل.

الحب بالنسبة لي كان تورطاً، كنت أخاف أن يتعلق قلبي بأحدهم، لأنني أخاف الفراق، أخاف أن تغدر بنا الأيام، لذلك كنت دائماً أتجنب أي حوار يبدأ به أي رجل، إلا أنت فقد غرقت في الحوار معك حتى بتّ أنتظر رسائلك بشغف، ما جعلني أتيقن بأني لم أدر مقوّد قلبي عن أحد بل كان قلبي لا يميل لأهوائهم، إلا أنت.

فقد فتح مركب قلبي كل أشرعتته وانطلق مسرعاً إلى شاطئك.

ومنذ ذلك الوقت اعتدت على أن تبدأ صباحاتي بك، بحروفك وكلماتك التي كانت تبعث في نفسي السعادة المطلقة، حتى أنني نسيت كيف كنت أبدأ يومي قبلك، أذهب إلى عملي وأنا ممتلئة بالسعادة، أرى الحياة جميلة بكل ما فيها، حتى أن صديقتي لورين قد لاحظت عليّ تغيير ملامحي، شاهدت بريق عينيّ الذي بات واضحاً كبريق النجوم، قالت لي ذات مرة:

-وإني لأرى في عينيك بريقاً لا يُرى إلا في عيون العشاق.

ضحكت خجلاً وقلت لها:

-وما أدراك؟ هل العيون تتغير عندما نحب.

-بل قولي إنها تفضح من يحب، وإن كنتم عن الآخرين، فعيناه تحكي.

- بما أنك قرأت ما في عيني سأحكى لك ولكن اجعليه سرّاً لا تخبري أحداً.

صديقتي لورين الجريحة من قصة حبٍ خرجت منها مكسورة الخاطر، وعلى الرغم من ذلك كانت لا تفارق البسمة محياها، لا تذكر من أحبت وإن ذكرته تضحك لذكراه، أما عيناها فكانتا تمتلئان بالدموع، وإن سألتها، لم البكاء؟

تقول من الضحك، ألا ترين بأني أضحك لا أبكي.

عندما أخبرتها عن الرسالة وعن تواصلنا عن طريق الإنترنت وعن سجل الشعر الذي دار بيننا وعن كلامك معي، كنت أتحدث إليها وتنظر إليّ مبتسمة، لكن لم أع ما تقصده عندما قالت لي:

- آه أنه سحر البدايات، أتمنى أن يكون مختلفاً عن باقي الرجال، أتمنى أن لا يُكسر قلبك كما كُسر قلبي، كوني حذرة، أحبي ولكن لا تغدقي.

أوجست خيفة من كلامها ومن تحذيراتها لي، على الرغم من أنها فرحت لي بأني وجدت الرجل الذي نبض له قلبي، وبأنك قربي و كامل الأوصاف كما وصفتك لها.

لكنها أخبرتني بأن الرجل لا يظهر مكنون نفسه إلا بعد المعاملة وبأن الأيام كفيلة بأن تظهر معدنه وتكشف صدق نواياه وتزيح المواقف جميع الأغطية التي من الممكن أن يتستر بها، ففي بعض الأحيان لا يستطيع الرجل أن يستمر في ارتداء قناع الحب طويلاً، أو إظهار الود دائماً إن كان يتعامل بقشوره لا بقلبه، ينظر بعينه لا بعين روحه.

شردت حينها وهي تتابع كلامها ثم صمتت عندما رأيتني قد تغيرت ملامح وجهي فربت على كتفي وأيقظتني من شرودي.

- هيه ما بك، لا أريد أن أخيفك فأنا أتكلم بحسب تجربتي الفاشلة، وليس كل الرجال سواء.

كنت أتذكر كلامك معي فأشعر بالسعادة والطمأنينة وأشعر بأنك مستعد لأن تفعل أي شيء لأجلي، حبك الكبير لي وحماسك حينما تحادثني، لا يبدو وأنت تريد أن تتعرف لا أكثر كما يفعل البعض، بالإضافة إلى أنك لم تكن تملك وقت فراغٍ كافٍ ما يجعلك تبحث عن امرأة لتملأه فأنت أخبرتني بأنك تريد روحاً لك وشريكة حياة.

سألتني يوماً إن كنت قد أحببت من قبل أو أن كان لي ماضٍ لا أريد أن أذكره لك وبأنك تريد أن تبدأ معي حاضراً ومستقبلاً جديداً وأن أنسى كل ما يتعلق بغيرك فقلت لك:

-ابراهيم، أنا لم أحادث رجلاً من قبل إلا أصدقائي في العمل وكلهم كانوا بمثابة أخوة لي لا أكثر حتى وإن أبدى أحدهم إعجابهم بي أو اعترف بحبه فإني أبتعد وأقطع الطريق عليه منذ البداية.

فقلت لي حينها:

-لكني لمست من خلال كتاباتك بأنك جريحة من قصة ما، لا بأس لا أريدك أن تتذكري شيئاً، انسي كل الماضي فأنا من الآن ماضيك وحاضرك ومستقبلك.

أجبتك:

-لو أنني أحببت أحدهم لما رأيت حروفي الآن، فما كنت فتحت قلبي لرجل غيرك، فالنسبة لي الحب مرة واحدة في العمر، مرة لا تتكرر.

قلت:

-حسناً، لا أريد محاسبتك ولا أحاسبك أساساً انسي الأمر.

اعتزاني شعور غريب، شعرت وكأنك تريد أن تنسيني ماضٍ قد عشته وترمم انكساراتي وتشفي جراحي وكأنني قد عشت قصة حب فاشلة قبلك، لم كنت تفكر بهذا الأمر؟

الماضي الذي عشته يا ابراهيم وما أود نسيانه هو تلك الحرب التي شوهدت دواخلنا ولم نعد نرى في هذه الحياة جمالاً وأملاً، كنت أحتاج إلى رجل يشعر بي وأشعر به، يتفاسم معي همومي وسعادتي، يساندني و يأخذ بيدي، يمسخ دمعي، أجده حاضراً متى احتجته، يقتل وحدتي التي عشتها منذ طفولتي دون وجود رجل يملأها، يكفي بأني عشت دون أب ولم ألمس حنانه، أردت يا ابراهيم أن تكون لي كل شيء.

بالمقابل أردت أن أرد لك سؤالك، بأن هل كان لك حبيبة من قبل؟ لكن بدلاً من ذلك قلت لك:

-بالمناسبة أنت أيضاً كنت تهاجم المرأة في كتاباتك وقد قرأت ذلك على صفحتك.

قلت:

-آه، نعم، لكنني لا أقصد جميع النساء كنت أقصد إحداهن فقط.

-إذن قد كان لك حبيبة.

-لا بل كنت خاطباً واستمرت خطبتنا أربع سنوات ثم بعدها هربت.

-هربت؟ بهذه السهولة، وهي ما حلّ بها؟

-تزوجت من مدير الشركة، كانت زميلتي في العمل.

-ولم تركتها؟

-لا تستحق، كانت لا تستحق. انسي الأمر دعينا منها.

هربت من حديثك عنها كما هربت منها دون أن تخبرني بالأسباب التي جعلتك تنهي خطبة دامت أربع

سنوات بتلك البساطة، أربع سنوات وزملاء في العمل!

بثُّ أنخيل كم كانت علاقتكما جميلة، كم قضيتما من الوقت معاً، كم أبديت إعجابك بملابسها وكم أبدت

اعجابها بأنافتك ورائحة عطرك، كم مرة نامت وهي تتذكر تفاصيل يومها معك وابتسمت لنكتة قد قلتها

لها، كم افتقدت لك في إجازاتك وكم اشتقت لها حين غيابها.

أربع سنوات! كم مرة مرضت فيهن وخففت عنها ألمها بحديثك وكم خافت هي عليك حينما تصاب ولو

بالزكام، كم مرة قلت لها أحبك وكم مرة عبرت عن شوقها إليك.

كم تشاجرتما معاً وما مضت ليلتكما إلا وتصالحتما وسمع كلاكما صوت الآخر، كم بكت لأجلك

ومسحت دموعها بيديك.

كم مرة احتفلتما بعيد ميلاد أحدهما، وأعياد رأس السنة والحب والأعياد الدينية، كم لديها من ذكريات

منك ولديك ذكريات منها، ألم تهدها يوماً عطرّاً تشم رائحته كلما داهمها الشوق إليك؟

ألم تذهبا إلى السينما معاً لتشهدا فلماً رومانسياً كان أو درامي؟

ألم تضع رأسها على كتفك وداهمها النعاس فتركتها نائمة وأنت تنظر إلى ملامحها، كم مرة خرجتما إلى

الشوارع ومشيتما سوياً وتبادلتما الأحاديث، وكم مرة داهمكما المطر فتبللتما وعشتما أجمل اللحظات، كم

مرة أمسكت بيدها وأتت تقطعا الشارع فبقيت يدها عالقة في يدك طوال الوقت ومضت ليلتها تشم رائحة عطرِكَ التي تسللت إلى مسامها فما غادرتها حتى التقت بك مرة أخرى.

كيف كان شعورها عندما اختفيت من حياتها؟

هربت؟ كيف ذلك؟ هل استيقظت صباحاً تتفقد هاتفها لتجده خالٍ من رسالة منك؟

هل ذهبت إلى العمل فلم تجدك وعلمت من زملائكما بأنك قد غادرت المدينة دون سابق إنذار؟

هل تشاجرتما قبل ذلك؟ هل اكتشفت خيانتها مع مدير الشركة؟

ما الذي حدث لتنتهي علاقة دامت أربع سنوات، كيف استطاعت أن تنسى حبك وتتزوج من مدير الشركة؟

كيف لتلك التفاصيل أن تُنسى أو أن تُهجر بوقت قصير؟

لم أكن أستطيع تصور طبيعة العلاقة التي كانت بينكما، فأربع سنوات لا بد وأن مر فيهن الكثير من التفاصيل والكثير من المشاعر والحب والكثير من الأحلام.

وأنا لم أكن أعرفك سوى منذ بضعة أسابيع لم أرك فيها سوى مرة واحدة، أحاديثنا لم تتخط الأحراف بيننا، كيف لك أن تكثر لي تلك المشاعر، كيف لك أن تضعني في مرتبة عالية، أن تتخذني روحاً لروحك، وحينما أسألك، لم أحببني وكيف؟ كنت تجيب: هي الأرواح تلاقى، روعي أحببتك، ليس لي سلطة على ذلك فحب الروح للروح أقوى وأطهر من أي حب.

وبالمقابل أحببتك، كل ما فيّ أحبك، كل شيء فيك كان يلفت انتباهي ويثير اعجابي، حروف منك تغير مجرى الدم في عروقي وتسيطر على نبضي، كان قلبي ينبض لأول مرة بشكل مختلف وكأنه بجبك لم تعد له مهمة النبض للحياة ونقل الدم، بل ينبض بجبك وباسمك وبك أنت.

ومع ذلك كنت ما زلت أتحفظ على الاعتراف بكل ما في قلبي لك، كنت أخشى أن أصارحك أو أن أنجرف في بحر الحب الذي بدأ يقود مركبي دون إرادتي.

بعد أن أنهيت محادثتي معك ذلك المساء كان رأسي يضح بالأسئلة الكثيرة حولك، شعور بالاختناق بدأ يتسلل إلى حنجرتي ودوامه من الحيرة قد وضعت فيها، قصدت أُمي الجالسة في الصالة، جلست بجانبها ووضعت رأسي في حضنها، فبدأت بالمسح على شعري ثم قالت لي:

- ما بال صغيرتي هذه الأيام وقد كثر غيابها في غرفتها، لم تعد تجلس معي لنحتسي القهوة كما السابق، هل هو الحب، أم العمل، أم روايتك التي تكتبين.

شردت قليلاً في كلام أُمي، أُمي التي تعرف ما في داخلي دون أن أتحدث ولا أخفي عنها شيئاً، لم أستطع بعد أن أخبرها عنك، لكنني بادرت بسؤالني عن والدي.

- أُمي، هل أحب أبي امرأة قبل أن يتزوجك؟

- ولم السؤال؟

- أريد أن أعرف عن أبي كل شيء.

تنهدت أُمي حينها ملء صدرها وكأني فتحت باب الذكريات فهبت رياحه محملة بالغبار الذي لثم عينيها فدمعت.

ثم أجابتنني:

- نعم، لقد أحب والدك قبل أن يتزوجني.

الفصل السادس

اعتراف

في ليلة رأس السنة، والسماء تضيء بالألعاب النارية، أشجار الميلاد تتلألأ في زوايا البيوت، الثلج قد غطا وجه الأرض وتناثرت ذراته المتساقطة في الهواء تلمح الوجوه ببردها القارس، مرت الليلة كأى ليلة شتوية على نيفين، لا شيء سوى الصمت يطبق على جنبات البيت، لا شيء سوى هدير الموقدة وهي تحرق الأخشاب، لا شيء سوى صوت الاحتفالات والأهازيج على شاشة التلفاز الصغيرة أمام نيفين وزوجها الذي نهض وارتدى ملابسه وحمل مفاتيحه وهم بالخروج وكانت دقائق العام الجديد قد بدأت ثم قال لها:

- لا تنتظريني نامي، فلربما أتأخر.

لحقت به إلى الباب دون أن تنطق وقد أحست بأنه سيخرج ليقتضي الليلة مع أصدقائه وسيعود كعادته محموراً، نظر إليها دون أن يقول شيئاً، أغلق الباب وقام بقفله من الخارج كما يفعل دائماً.

مسح الثلج عن مقدمة السيارة ثم ارتحل فيها وأدار المحرك وذهب.

كانت نيفين ترمقه من النافذة بعينها، حتى اختفى عن ناظريها، والبرد قد داعب وجنتيها فاحمرت.

لا تستطيع منعه أو مناقشته في الأمر، لأنها حينما حاولت أن تمنعه ذات ليلة من الخروج قام بضربها ورمها أرضاً ولم تستطع حتى أن تخبر أهلها بذلك، فكتمت ألمها وأخفت ما في داخلها من خوف وحيرة ورفض لما يقوم به، فأثرت الصمت.

باتت ليلتها بالقرب من المدفأة وهي تقرأ إحدى الروايات، كانت القراءة الملاذ الوحيد لها من كل شيء، تهرب فيها إلى عالم آخر، إلى حياة كم تتمناها، تتساءل في نفسها هل أبطال الروايات حقيقيون؟ هل هم بهذا الوفاء أم خيال الكاتب ما يجعله يرسم لنا أبطالاً كما نرغب ونتمنى، ويصور لنا حباً ووفاءً تحلم به كل امرأة ويتمناه كل رجل.

بقيت على تلك الحال تقرأ حيناً وتكتب حيناً آخر حتى داهمها الكرى أسندت رأسها على الأريكة وأطلقت العنان لأحلامها وتركتها تتجول في أنحاء غرفتها، مغمضة العينين، ملامحها الملائكية تفيض نوراً

وسكينة، كان الفجر قد حل حين عودة رائد من الخارج، كان كعادته يترنح ويديه سلسلة فضية يمسك بطرفها بأصابع يده تاركاً طرفها الآخر حراً يلوح في الهواء بحركات دائرية.

بدأ ينادي على زوجته بصوته المتثاقل المتقطع حتى ساقته قدماه حيث تغفوا.

- لا تغيرين من طبعك، لا أعلم ما الذي تجديه من النوم هنا، تتركين فراشك الوثير لتنامي بين الكتب والأوراق، لست معتادة على النعيم.

قهقهه ضاحكاً ضحكة هستيرية وكأنه يشاهد فيلماً كوميدياً، ما جعل نيفين تستيقظ على صوته، فنهضت في الحال خائفةً منه مستغربة.

قال لها مستهزئاً:

- هل نمتي جيداً؟ وتابع ضحكته.

تلمست رقبتها المتبيسة بعدما شعرت بألم فيها ثم قالت له:

- هل أنت بخير؟ لست على ما يرام، اجلس.

أمسكت به محاولة لأن تقوده إلى الأريكة بعدما رأته يترنح ضاحكاً يكاد يهوي على الأرض، فأبعدها عنه وجرد قدميه إلى الأريكة ورمى بنفسه عليها ونيفين تنظر إليه فجلست بالقرب منه وأعدت سؤالها عليه:

- هل أنت بخير يارائد، لربما أكثرت من الشرب هذه الليلة آه منك.

كان يدحرج رأسه على ظهر الأريكة يميناً وشمالاً ويتأوه.

- رائد أرجوك ما بك، أعلم بأن الشراب يفعل بك هكذا لكنك تبدو حزيناً مهموماً ألا تحدثت إلي، ألا أخبرتني بحزنك.

نظر إليها واضعاً يده على قلبه وقال:

- وما الذي سأقوله، أنا متعب، يؤلني هنا فقط.

- ماذا تقصد؟

- يؤلمني قلبي يانيفين، تؤلمني روحي، لا أستطيع نسيانها.

نفرت من عيني نيفين دمعة حارة، ابتسمت ثم بحتت ابتسامتها، لا تصدق ما تسمعه من زوجها الذي كان يبدو إنساناً صلباً لا يعرف الحب، منطفئ المشاعر، لكنه ولأول مرة يتحدث عن ألم الروح والقلب فيما كان في السابق لا يشكو إلا الصداع وأوجاع في الأسنان والظهر، لا تصدق بأن زوجها قد يحب وإن كان لا يحبها هي، ولكن قلبه قد نبض حباً لإحداهن، تنهدت عميقاً وكأن راحة أصابتها لما سمعته فالآن ستضع مبرراً لتصرفاته معها وجموده وقلة كلامه وقسوته عليها.

- أخبرني عنها هل كانت جميلة؟

- ليست أجمل منك، لكنني أحببتها، نبض قلبي لها منذ صغرنا، لم أعرف سواها، منذ أن وعيت على هذه الدنيا وأنا أراها كل شيء.

- وهي؟

- ربما كانت تحبني أضعاف حي لها.

كنا نتبادل الرسائل الورقية ومن ثم أصبحنا نقضي ساعات على الهاتف، لا تنام إلا لتسمع صوتي ولا يهدأ قلبي إلا لسماع صوتها، كنا نليق ببعضنا كثيراً، كنا سنغدو أجمل زوجين لولا أن.

- لولا أن ماذا؟ أكمل.

- لولا أن فرقنا القدر.

كان رائد يتكلم لأول مرة عن ماضيه، يبوح بما في داخله دون أي قيود، ربما كان تحت تأثير المشروب مغيب الإدراك لأنه يبدو إنساناً آخر، لأول مرة يتحدث لنيفين عن حبه القديم، لأول مرة لا يتحدث دون أن يصرخ أو يتأفف.

كانت دموع نيفين تنهار سخية على خديها، لكنها تصغي إليه، تريده أن يكمل دون توقف، تريد أن تعرف كل شيء.

- أكمل يارائد حباً بالله لماذا افترقتم.

كانت تشهق متأثرة بحديثه، لطالما بكيت حينما كانت تقرأ رواية عاشقين، لأول مرة ترى بطل الرواية ماثلاً أمامها يتحدث وإن كان زوجها وإن كان كلامه ثقيلاً عليها.

- كانت ابنة خالتي ووالداتنا تعلمان بالأمر، منذ صغرنا وهن يحكين لنا بأني لها وبأنها لي وكبرنا على هذا الحلم، لكن والدي ووالدها لم يكونا على قدر من الود، كنت صغيراً لسن الزواج بنظر والدي فرفض طلبها لي، وهي خطبها ابن عمها أرغمها والدها على الموافقة ولم يأبه لرأيها فتم الزواج خلال فترة صغيرة. في ليلة زفافها، كانت المرة الأولى التي أحسسي فيها مشروباً كحولياً، شربت حتى الثمالة، حتى تخدرت كل حواسي.

صحيح أنه تحطم قلبي، لكنني كنت هادئاً جداً، هادئ للحد الذي جعلني أقدم التهاني لزوجها حينما صادفته في الشارع، سلمت عليه بحرارة وقلت له مبارك عليك هذه الجوهرة، لمست يده التي لامست جسدها، كانت خشنة، وبسمة فتاة رقيقة كالنسمة.

- اسمها بسمة.

قالتها نيفين واقتربت أكثر من رائد، أمسكت بيديه الباردتين وضمتهما بين كفيها ناظرةً إليه تريد أن تلتهم كل حرف يخرج من فمه، تريده أن يتحدث عن كل ما في داخله، تخشى أن يغمى عليه من تأثير الخمر، كان يتحدث بصعوبة، بصوت أشبه بالهمس، مسلماً رأسه على الأريكة مغمض العينين وكأنه تحت تأثير تنويم مغناطيسي في عيادة طبيب نفسي، يتحدث عن كل ما يكتمه في صدره، يبوح بكل ما يظنيه ويؤلمه.

- تطلقت، نعم تطلقت بعد شهرين من زواجها، لم تستطع ان تقبله وأن تعيش معه، أو أن تتخلى عن حبا، تطلقت بسبب حبا لي.

شهمت نيفين وقالت:

- حقاً، لأنها تحبك بصدق، لأن قلبها معك، لا تستطيع أن تكون جسداً لرجل آخر بلا روح.

ثم صمتت لبرهة وأردفت:

- لم لم تتزوجا إذا؟

-اتصلت بي بعد طلاقها، قالت بأنها لا تستطيع العيش دوني، وبأنها كانت تبكي كل ليلة شوقاً إلي، واجهت ابن عمها بحقيقة الأمر، أخبرته بأنها لا تريده، وبأنها تحبني، فطلقها.

-وأنت ماذا فعلت لأجلها؟

-خذلتها.

دُهِشت نيفين أكثر لما يقوله، تجمدت عيناها فيه، وضغطت بيديها على يديه حتى تشابكت أصابعها.

-أكمل أرجوك، لا تسكت.

كانت دموعها تنهار بغزارة، تسيل على خديها وتسقط على الأرض.

-قلت لها بأن تنساني وتكمل حياتها بدوني.

أفلت يديه من بين يدي زوجته ومسك رأسه وبدأ يصرخ من الصداق، وقفت نيفين أمامه وهي منهارة لما سمعته، فلقد أغرقها في بحر الحيرة ثم عادت لتسأله تريد أن تفهم منه ما السبب الذي جعله يتخلى عنها بعدما تطلقت لأجله، لم يقدر لها وفاءها وشجاعتها التي لا تمتلكها أية أنثى في بلادنا وفي زماننا هذا، عادت حرة إليه فخذلها.

قطع شرودها صراخ رائد الهستيرى:

-لا أستطيع أن أتزوج بامرأة لمسها غيري، نفسي لم تعد ترغب بها لم تعد تتقبلها وإن كانت روحي معلقة بها، أفهمت؟

لكني لم أستطع نسيانها، طيفها يجلدني، يهزأ بي، يلعني في كل لحظة.

ثم انفجر ضاحكاً ونيفين أمامه قد تجمدت عيناها في محجريهما وهي تنظر إليه.

أشرقت الشمس ونيفين ما تزال تجلس على أريكتها، رائد غط في نومه بعد نوبات من الضحك والبكاء، استفرغ كل شيء، ماضيه، قصة حبه وحزنه المبهم وكل ما تناوله في تلك الليلة، قادتة إلى غرفة النوم وعادت إلى الصالة، شردت في كل ما قاله لها، قلبه ما يزال معلقاً بامرأة أخرى وإن أبدى لها حبه وتودده في أيام زواجهما الأولى، لكنه لم يستطع النسيان.

وهل ينسى المرء حباً سكن في قلبه زمناً؟

نضح وكبر معه، علق كل أحلامه وآماله عليه؟

ما أوقع نيفين في حيرة من أمرها، كيف لرجل أن يعاشر امرأة لا يحبها وعقله وقلبه عند امرأة أخرى؟

وهل يعتبر معاشرته لها كحقنة مورفين ليخدر أيامه ومشاعره لبضع دقائق، يتغيب فيهن عن الواقع وينسيه

بأنه بين يدي امرأة أخرى؟ لكنه ما يلبث أن يصبح رجلاً آخر في باقي ساعات اليوم، يعود إليه وعيه

ويستفيق على واقعه الذي يخبره بأن من يجب ليست هي ذاتها التي تقف ساعات في المطبخ لأجل أن تعدّ

له طعامه وليست هي من ينظف له ثيابه وبيته ويرتب غرفة نومه ويفرش له الفراش على السرير الذي

سينام عليه وتكون غيرها بقربه، ليمارس معها دور الفحولة بكل مهارة لكن لا يستطيع أن يمارسه كزوج

خارج حدود غرفة النوم.

غلب نيفين النوم على الأريكة وهي تحتضن دموعها وأفكارها وحيرتها وخيبتها لا تدري ما تصنع، كيف لها

أن تُنسي زوجها حب حياته الذي بسببه عاد إلى مقارعة الخمر، ليغيب به عن واقعه الذي يعيشه دون

حبيبته، وكيف لها أن تملأ فراغ قلبها الذي كان لزاماً عليها أن تملأه بحب زوجها، وهو بدوره لم يفسح لها

المجال لأن تشعل فتيل الحب والود وحتى الإلفة، التي كانت كجبل مهترئ تتمسك فيه ويتأرجح بها بين

صدّه لها واحتياجه لجسدها، دون أن يضاجع أفكارها وأحلامها ومشاعرها لتركن إليه وتستقر حياتها وتجل

بجبه في قلبها كما ستحمل جنيناً منه يسكن أحشاءها، فهي امرأة ضعيفة كتلة من المشاعر تحتاج لأن

تشعر بحب زوجها لها، لتبادله الحب الذي سينعكس جلياً على بيتها، ليضح بالسعادة بدلاً من الجفاء

والنفور ورائحة الموت المنبعثة من الأثاث الصامت، الذي لا يشهد على ضحكاتها وسعادتها التي

تنعكس على الأشياء كما تنعكس في عيونهما، فيغدو كل شيء يضحك معهما، فالساعة تدق فرحاً

لقدومه بدل أن تدق ضجراً للوقت الذي يمضيه صامتاً أشبه بتمثال لا حياة فيه.

شعرت بالإعياء الشديد وهي تجلس مشتتة الذهن، وقاطع شرودها آلام حادة في بطنها، فهرعت مسرعة

إلى غرفة النوم لتوقظ رائد، تتاقلت خطواتها ودارت بها الجدران والأرضية، لتتشوش الرؤية وتسقط أرضاً

فاقدة للوعي.

استيقظ زوجها على صوت ارتطامها بالأرض، نظر إليها لبرهة لم يستوعب ما حدث لكنه بعد بضع دقائق نهض إليها محاولاً إيقاظها، فهرع مسرعاً ليتصل بالطبيبة القريبة من منزلهم وحينما حضرت طلبت منه أن ينقلها إلى المشفى لأنها بحاجة إلى فحوصات طبية.

في المشفى خرجت الطبيبة وهي تبشر رائد بحمل نيفين الذي كان بانتظاره على أحر من الجمر، ابتسم ودار حول نفسه ثم نظر إليها مجدداً وقال :

-ماذا قلتِ؟

أجابته الطبيبة وهي تضحك على ردة فعله:

-زوجتك حامل وقد أكملت شهرها الأول، جسمها ضعيف وتحتاج إلى مقويات وعناية، أصابها هبوط ضغط حاد وأخشى أن يتكرر الأمر، والنزف خارجي الحمد لله لذلك فهي تحتاج إلى مراقبة وألا تبقى وحدها في المنزل.

-وابني، كيف حال ابني؟

-حماس الأبوة الباكر. قالتها الطبيبة ثم أردفت:

-لا تقلق إن شاء الله يكون بخير، وكما قلت لك تحتاج إلى راحة وعناية فقط وسأكتب لها بعض المقويات والمثبتات.

أخرجت ورقة وقلم وخطت عليها أسماء الأدوية وناولتها لرائد.

-كي لا أنسى. تحتاج إلى راحة نفسية، أظن بأنها تعرضت لصدمة ما أو ما شابه.

-لم تتعرض لشيء، لم يحدث شيء، لكنه السهر نعم لقد تأخرت وهي تقرأ، تباً للكتب.

استأذنت الطبيبة بعدما أخبرته بأن نيفين سترتاح في المشفى لبضع ساعات ثم بإمكانه إخراجها وأخذها إلى البيت، دخل إليها رائد رآها ممددة على السرير، وجهها شاحب وعيناها ذابلتان، جلس بجانبها وهو ينظر إليها ثم قال:

-لم لم تخبريني بأنك حامل.

نظرت إليه باستغراب وقالت:

-وما أدراني، لم يكن لي علم بالأمر، والطبيبة قالت بأني أحميت الشهر الأول فقط.

-ألم تعلمك أمك شيئاً، ولا علمتك تلك الكتب التي تسطرينها فوق الرفوف وتفضلين قضاء الوقت معها بدلاً من أن تهتمي بنفسك وتعربي إن كنتِ حاملاً أم لا.

لم تجبه نيفين بل أجابته دموعها التي انهارت على خديها وحينما رآها رائد على هذه الحال قال لها:

-حسناً الآن، لا تبكي لم أقل لك شيئاً لتحزني، أنا فقط أنتظر ابني بشغف، انتظر اليوم الذي سأراه أمامي، اعنتي بنفسك لأجل ابني.

نفض متوجهاً نحو الباب ثم استدار قائلاً:

-بالمناسبة، الطبيبة قالت أنه يجب أن لا تبقي وحيدة في المنزل، تخشى من عودة هذا الشيء، الضغط .. الإغماء .. المهم سأذهب الآن وآتي بأمك عليها تلازمك في البيت حتى تتحسن صحتك، أنا لا وقت لي.

اكتفت نيفين بهز رأسها، وهي تمسح دموعها، ثم وضعت يدها على بطنها تتحسس جنبينها الذي انغرس بين أحشائها والذي سيغير منحى حياتها، ربما يؤنس وحدتها ويخرجها من الحياة الصامتة التي تمضيها مع زوجها، سرور نبت في قلبها وفكرة أن تصبح أمّاً أعجبتها كثيراً، ابتسمت وسع شفيتها وحمدت الله على هذه الهبة الجميلة.

في المساء عادت نيفين إلى بيتها وبرفقتها والدتها التي كانت فرحة مستبشرة بحمل ابنتها، قامت على خدمتها لعدة أيام حتى تحسنت وكان رائد يعود إلى البيت محملاً بالأكياس المليئة بالخضار والفاكهة وأنواع اللحوم، كانت تستقبله والدة نيفين بحفاوة، و تحضر لهم أطيب الأطباق التي تعمر بها المائدة مساءً.

ذات يوم وهما في المطبخ يحضران طعام الغداء قالت لها أمها:

-ما شاء الله زوجك كريم وشهم.

هزت نيفين برأسها وهي تقطع شرائح اللحم، صدقت أمها، هو بلا شك كان يحمل صفات جميلة تحلم بها الكثير من النساء، لكنه لم يستطع أن يمنحها احساساً بالاستكانة له.

قالت لها والدتها حينما لاحظت صمتها:

- ما بك نيفين، لا تبدين سعيدة.

- لا شيء أمي، مرهقة قليلاً.

- اجلسي يا ابنتي لا تتعي نفسك أنا سأحضّر كل شيء.

سحبت السكين من يدها وتابعت العمل بدلاً منها وجلست نيفين على الكرسي وهي ما تزال شاردة.

- ابنتي الجميلة ستصبح أماً وأنا سأصبح جدة.

قالتها أم نيفين وهي تدندن أغنية شعبية ثم عاودت حديثها.

- سأعود إلى المنزل غداً صباحاً، تعلمين بأن أبك لا يستطيع أن يجلس في البيت دون وجودي ثم ضحكت وهي تمسح يديها بمنديل.

قالت نيفين وهي تمسك بساعد أمها:

- لو أنك تبقين عندي أكثر يا أمي، أنا سعيدة بوجودك معنا.

- أعود إن شاء الله، لكن البارحة اتصل والدك بي، كان غاضباً قليلاً، لا يستطيع أن يتحمل غيابي.

ثم ضحكت وقالت: آه من الرجال.

شردت نيفين بكلام أمها وتذكرت أيامها التي تمضيها مع زوجها وسألت نفسها هل سيفتقدني رائد إن غبت يوماً عن البيت أم سيكون وجودي وعدمه واحد بالنسبة له .

قاطعتها أمها بقولها:

- أعرف بأن الحامل تشتتهي أنواعاً من الطعام، تشتتهي النوم، لا أن تضل عابسةً وشاردةً هكذا.

- لا شيء لكن أقول هل يستطيع رائد أن يمضي وقته بدوني أم لا فرق عنده.

-انظري ياابنتي، الحياة تتغير وخصوصاً الحياة الزوجية لا تقوى إلا مع الزمن، التفاهم والاحترام هو أساس العلاقة ثم يأتي الحب والتعلق، وكلما كبر الرجل يتعلق بالمرأة أكثر، زوجك شاب لم يدم على زواجكما بضعة أشهر لا زلتما في بداية الطريق، عليك بالصبر فقط وبعد أن يأتي الأولاد تزداد العلاقة قوة وارتباطاً ويصبح الرجل همه بيته وأولاده، أعلم بما تفكرين به دون أن تصارحيني، الرجل لا يعبر عن حبه لزوجته بالكلام إنما بالأفعال، انظري لأفعاله، تصرفاته، لا تدققي على كلامه، وأنتِ بعدها ستحكمين على حبه، فالرجال أغلبهم صامتون.

هزت نيفين رأسها موافقة كلام أمها، تنتظر من الأيام أن توطد علاقتهما أكثر وعسى مولودهما الأول يغير من حياتهما وعساه أن يتعد عن عاداته في الشرب التي لم تستطع أن تخبر والدتها عنها، ولا عن معاملته القاسية معها، فلتدع تلك الصورة الجميلة التي رأتها أمها عنه زاهية لا تريد تشويهها.

الفصل السابع:

الحب لا مفر منه

سقطت دمعة حارة على خدي من عين والدتي التي بدأت تبكي وهي تحدثني عن والدي، رفعت رأسي عن ركبتيها ومسحت دموعها بيدي وقبلتها.

أكملت أمي حديثها وقالت:

-لقد كانت بسمة فتاة قوية وشجاعة، لم يدمرها خذلان رائد لها فتزوجت من رجل وسيم، ذو أخلاق كريم، وأنجبت منه طفلين جميلين وكأن الله قد جبر بخاطرها وعوضها عن حبها. ازدادت حيرتي أكثر وأسألتي التي بدأتها من خطبة ابراهيم لقصة حب والدي، كيف تستطيع المرأة النسيان، كيف تضمد جراح قلبها وتتجاوز الخذلان، كيف تعبر فوق ألمها وترتبط برجل آخر وتنسى، هل هو خذلان الرجل ما يجعل كبرياءها ينقذها من السقوط والانهيار.

لكني خشيت في ذات الوقت وتساءلت هل من المعقول بأنك تريد أن تنسى حبك معي؟

ألم حاد علق في حنجرتي وكأن ناراً اشتعلت في جوفي واستقرت في معدتي، فتكورت على نفسي وبدأ عقلي يدور في متاهة لا نهاية لها.

في اليوم التالي ذهبت إلى عملي و ذهني متخبط من الأسئلة الكثيرة، جسدي مثقل وكأني تعرضت لحادث سير حطم عظامي.

في العمل كانت صديقتي لورين في إجازة، لذلك كان زياد يستغل غيابها دائماً ليبادلني الأحاديث، ويومها سألني عن حالي بعدما لاحظ شحوب لوني، نظرت إليه وكدت أن أطلق جميع الأسئلة التي في رأسي، لكنني لم أبح بحرف واحد ولم أرد على سؤاله الذي سألني فيه عن حالي، اكتفيت فقط بالصمت.

لطالما كان زياد لا يتكلم حينما يراني على هذه الحال، لكنه لا يتركني بل يبقى بجانبني، دعاني في ذلك اليوم لشرب القهوة في المقهى المجاور للصحيفة، طلب لي قطعة شوكولا فهو يعرف ما الذي يعدل مزاجي دون أن يسألني، فلا يجديني إلا وتكلمت من تلقاء نفسي، بعد صمت طال قليلاً انطلق من فاهي سؤال له:

-هل أحببت يوماً يا زياد؟

أربكته بسؤالِي، وضع فنجان القهوة أمامه على الطاولة، عدّل جلسته وشاح بنظره عني ثم ابتسم ابتسامة حائرة وعلقت عيناه في النافذة ثم قال:

-كيف أجيب على سؤالك لا أعلم.

نظر إلي ولمعت عيناه بريقاً لم أره من قبل، ثم أخفض رأسه وبات ينظر إلى يديه ثم أردف:

-إن قلت أحببت فهذا يعني بأن حبنا حدث في الماضي وقصتنا انتهت، وإن قلت أحب فيأني أعيش قصة حب، أما عن حالي لا أعرف ماذا سأقول.

تعجبت لجوابه، وتحمست لأن يتابع حديثه، وضعت يدي أمامي على الطاولة وشبكت أصابعي ببعضهما وانحنيت للأمام فبتّ قريبة منه أكثر.

-ماذا ستقول عن حالك؟ كيفما راق لك الحديث، أنا أنصت لك.

ضحك وأخرج منديلاً من جيبه وبدأ بمسح قطرات العرق من على جبينه على الرغم من برودة الجو واحمر وجهه ثم قال متصنعاً عدم الارتباك:

-قلبي يهيم بفتاة رائعة، لكنني لم أخبرها بحبي لها يوماً ولا أرغب في إخبارها، لأني لا أريد خسارتها.

-وكيف تحسر إن اعترفت بحبك لها؟ لن تجد أفضل منك وسامة وخلقاً، أخبرني عنها أكثر، هل تعمل معنا، هل أعرفها؟ لربما ساعدتك في الاعتراف لها، ألسنت بمثابة أختك هيا أخبرني.

نظر إلي مجدداً وقال:

-انس الأمر، هيا لنعود إلى الصحيفة لدي عمل أريد أن أنهي التقرير الذي بدأت به في الصباح.

انسل من أمامي هارباً، حملت حقيقتي وتبعته، رن هاتفي المحمول توقفت لأرى من المتصل، خفق قلبي بسرعة عندما رأيت اسمك وترددت في الرد عليك خجلاً، لكن شوقي لسماع صوتك جعلني أفتح الاتصال، وضعت الهاتف على أذني جاءني صوتك:

-أحبك.

رعشة سرت في جسدي حينها وأغمضت عيني فجاءني صوتك مرة أخرى:

-أحبك.

ازدادت ضربات قلبي، دارت الدنيا فيّ، شعرت وكأنني أطير فوق السحب البيضاء، خفيفة كريشة، شعور لم يراودني من قبل، لم أستطع أن أجيبك ولم أعرف بما سأجيب فاكثفت بقول:

-ألو، مرحباً.

أجبتني بصوتٍ هادئ.

-لم أستطع أن أبدأ يومي دون أن أسمع صوتك، لم أرسل لك صباحاً أعتذر لك.

-لا داعي للاعتذار، يكفي بأني سمعت صوتك الآن.

-إنه أجمل صباح لي، ماذا تفعلين أين أنتِ.

-كنت أحتسي القهوة وسأعود إلى الصحيفة بعد قليل.

فقلت لي على عجل:

-لن أشغلك سأعود التحدث معك مساءً، انتبهني لنفسك.

حينها تمنيت أن لا تغلق هاتفك ولا ينتهي صوتك، تمنيت أن أقول لك أحبك، اشتقت لك. لكن لم أقف لك سوى:

-وأنت أيضاً.

أغلقت الهاتف، تابعت طريقي إلى الصحيفة وابتسامة عريضة قد ارتسمت على وجهي، صدى صوتك

كان ما يزال يداعب ذاكرتي وتنتعش له روحي، وكأنني لم أكن في حيرة قبل قليل، اختفت كل مخاوفي

وأوهامي، وكأن لصوتك سحرٌ يُذهب اللب.

هل هذا شعور طبيعي؟ هل الحب يفعل بنا هكذا حين سماع صوت من نحب يجعلنا نشعر وكأننا نتنفس

من جديد؟

شيء ما كان يشدني نحوك، يجعلك تسكن ذاكرتي وتستوطن قلبي رغماً عني دون تفكير ودون أن أعطي
لنفسي الوقت لاتخاذ القرار فيك، ذات مساء حينما تحدثنا على الإنترنت قلت لي:

- سارة قبل كل شيء أريد أن تتخذي القرار فيّ، لا أريدك أن تتسرعني.

- كيف ذلك، وهل أتحدث معك الآن بكوفي لا أكن لك أية مشاعر؟

- سارة أخبرتك من قبل بأني أحببتك، لكن أريد أن تقرري أنتكلمين معي؟ اعطيك الفرصة للاختيار، لا
أريد أن أفرض نفسي عليك.

- إبراهيم، أنا أشعر بأني وجدت من يكمل روحي، من يشبهها، وجدت من أشعر معه بالأمان، أجده
مختلفاً عن باقي الرجال وإن كنت لم أحب من قبل ولكن من خلال تجارب مرّ بها من حولي.

- إذاً ما قولك، هل تقبلين بي؟ هل تكملين الطريق معي؟

ترددت في الإجابة، كنت أخشى أن أتخذ أي قرار وأندم عليه فيما بعد، واعتزاني الخوف من أن أركب
سفينة الحب معك، دون سبب كنت أهاب المجهول، كنت تبدو لي بأنك تسعى جاهداً لامتلاكها، وبأن
أفكاري وروحي واهتماماتي هي من لفتت انتباهك أكثر من جمالي الخارجي وهذا ما جعلني أعجب
بشخصيتك الفريدة .

جربت مرة أن أختبر حبك لي ولأرى مدى استعدادك لتقبلي بكل حالاتي لأني خشيت أن أظهر لك أجمل
ما عندي وحينما تلتمس

مني شيئاً لا يُعجبك، لربما تبدأ المشاكل بيننا أو أن نكون غائبين في خمرة الحب وحينما نصحو تتغير
أفكارنا، لم أشأ أن أبدأ معك إلا وأن أُطلعك على كل صفاتي القبيحة قبل الجميلة وأردت منك أن تخبرني
بكل صفاتك.

قلت لك بأني فتاة مزاجية جداً ومجنونة لربما جننت معي أو لربما عقلت معك، أفكاري أحياناً لا تروق
لأحد وأخشى أن لا تروق لك، أغضب بسرعة لأنفه الأسباب لكني سرعان ما أستعيد توازني بكلمة
لطيفة ممن أحب، و أن أُمي الوحيدة التي تستوعب مزاجي السيء، وبأني أدخل في حالات اكتئاب دون
سبب، أحتاج حينها لقلب يستوعبني ويصبر علي لا أن يزيداها.

قلت لي حينها: تعلمين، لقد زاد حبي لكِ وأحببت فيك صراحتك وجنونك هذا، سنكون أجمل اثنين وسيكون حبنا مجنوناً بلا قيود، ستكونين معي كما أنتِ لا أريد أي تصنع وأنا سأكون معك كما أنا ولن أخذلك يوماً.

كلامك كان يدخل إلى نفسي ليغير كل موازيني، كسحر يعث بي دون إدراك.

أي سحر كنت تستخدمه أثناء حديثك معي لا أعلم، وأي خمر كنت تسقيني إياه لأطير من عالمي وأحط على نخيل عالٍ في حقول حبك.

بات حبك يكبر في قلبي كل يوم، وصرت أطلب منك أن تسمعي صوتك فما عادت الحروف تكفي غرور قلبي ولا تهدئ من اضطرابه.

اعترفت لك بأنك ملكت قلبي وروحي وبأني اتخذت القرار فيك فلا مجال للتفكير بعد الآن، بتّ أشعر بأن لا حياة لي بدونك وبأنك الروح التي أحيا بها وقلبي ينبض لأجلك، بتّ أنا لست أنا كما أعرفني، نسيت كيف كنت أعيش قبل أن ألقاك، ولا كيف كنت أفكر دون أن تحتل المرتبة الأولى في قائمة الأفكار لا بل أصبحت تفكيري كله، بات قلبي ينبض باسمك وحدك.

ما عاد الصباح صباحاً إلا بحروفك ولا المساء مساءً إلا بصوتك.

أعشقك.. حينما قلتها لي لأول مرة، طرت كفراشة حديثة الخروج من شرنقتها تختبر التحليق لأول مرة فوق حقول أزهار البنفسج والنجس، أحلق وألثم الرحيق وأتنقل بحفة دون خوف من نفاذ الزهور، دون تفكير بانتهاء الربيع، دون إدراك بأن الحياة تمتلك فصولاً أربعة فأنا حينها ما كنت أراها إلا ربيعاً أبدياً لا ينتهي ولا يزول ولا تتغير بهجته.

كان يكفيني بأنك رجلٌ مثقف، لديك اهتمامات كاهتماماتي، حينما أحادثك وأناقشك كنت وكمن يخاطب عقله كنت تشبهي في كل شيء، ما كنت أعتقد بأن أقابل أحداً بهذه الصفات التي أحب، وأكثر الأحاديث التي تسعدني معك حينما نتبارز في الشعر تكتب لي وأكتب لك وتتراقص الأبيات أمامنا فرحاً بكلماتٍ تخرج من قلوبنا لتلامس أعمق نقطة في ذاتنا.

استيقظت يوماً على صوت رنات هاتفي المجنونة في السادسة صباحاً فكنت أنت بصوتك الذي يبعث في نفسي شعوراً لا يوصف، كقهوة صباحية بصوت فيروز ممزوجة بزقزقة العصفير ورائحة المطر حينما يلثم التراب، لا بل كشيء أكثر من ذلك يمشي في العروق كمجرى الدم في الجسد، متمنية أن لا تنتهي تلك الدقائق ولا تزول وأن يبقى الصباح صباحاً حتى إشعار آخر، ما زاد من نبض قلبي حينها عندما طلبت رؤيتي قائلاً:

- ألم يحن الوقت لأمتع ناظري برؤياك.

- كيف ومتى؟

- في المكتبة إن شئت، أو في أحد المقاهي.

- لتكن في المكتبة لي زيارة قريبة، رتب أنت الوقت المناسب وأنا سأكون جاهزة.

كان اتفاقاً سريعاً دون أي نقاش وكأني كنت أنتظر منك هذا الطلب لأني على حماس لأراك وجهاً لوجه أكثر منك، ربما سيكون لقاءنا هذه المرة مختلفاً عن أول مرة التقيتك فيها، كان لقاءً عابراً ومع ذلك كان مميزاً فكيف الآن وبعد أن امتلك إحدانا قلب الآخر وتعمقنا في أفكار بعضنا البعض، كم سيكون مثيراً عندما نتقي الكتب سوياً ونقرأ معاً وأغوص في عينيك وأشم رائحة عطرك التي ما تزال في ذاكرتي منذ أول لقاء.

وكان لي ما حلمت به، التقيتك في المكتبة بعد أن تحججت بالذهاب مع صديقتي لورين وعندما دخلت رأيتك بانتظاري واقفاً تتفحص الكتب من على الرفوف، شعرت بقلبي قد أعلن استسلامه عن ضخ الدم ليضخ بدلاً من ذلك شوقاً وفرحاً برؤيتك، لترتعد أطرافي ارتباكاً وتتورد وجنتاي خجلاً.

حينما رأيتني استقبلتني بابتسامة ومددت يدك نحوي مبادراً بالسلام وحينما مددت يدي ولمست يدك شعرت وكأن راحتي يدينا تعانقتا فبدأ قلبي يرقص رقصة غجرية على وقع ألحان الحب الصاخبة.

حينها دعانا العم كرم لشرب القهوة بعد أن رحب بنا، لبينا الدعوة وتبادلنا الأحاديث معه ثم بدأنا جولتنا في المكتبة التي لم تكن هذه المرة لانتقاء الكتب فحسب، إنما لنمضي وقتاً مع بعضنا نُشبع فيه جوع أعيننا، تذكرنا أول لقاء، وما دار بيننا من حديث، ابتسمت خجلاً وتابعت تفحصي للكتب التي لا أرى عناويناً

لها ولا كلمات من فرط انغماسي بخمرة الحب والخجل أمام عينيك، كنت أختلس النظرات إليك حينما كنت تشيح بوجهك نحو الرفوف وأنت تتحدث، لألتقط أدق تفاصيلك وأحفظها في عمق الذاكرة وحينما تلتفت إلي أهرب بنظراتي عنك، لم أكن لأستطيع النظر إليك وأن تلتقي أعيننا، شيء أشبه بإغماءة القلب حياً أشعر بها في جوفي في تلك اللحظة.

همست لي:

- صدقت أحلام مستغامي حينما قالت أجمل شيء لا نعثر عليه بل نتعثر به وأنا تعثرت بك هنا.

أجبتك بخجل: ولكن الذي يتعثر يسقط.

أردفت: وأجمل سقوط هو سقوطي في حبك.

حاولت أن أراوغك فقلت:

- لكن السقوط أحياناً مؤلم.

أجبتني بحنكة: حينما سقطت التفاحة على رأس نيوتن وهو يتأمل الكون لم يذكر لنا ألمه بل خرج لنا بنظرية الجاذبية ولولا أن جذبت الأرض التفاحة فما سقطت وأنت جاذبتي ومركز نظرياتي واهتمامي.

كانت أجوبتك وردودك عميقة صارخة ومقنعة وكانت تذهلني كثيراً.

ضحكنا حينها كثيراً وتابعا جولتنا ثم جلسنا في إحدى الزوايا في مكان مخصص للمطالعة على طريقي الطاولة إحدانا أمام الآخر أحاول إخفاء ارتباكي وأختلق الأحاديث لأجعلك تتحدث وأنا أنظر إليك.

وكنت بدورك تسألني أسئلة لا أعلم كيف سأجيبك عليها، أسئلة تحتل الإجابة ربما بكلمة واحدة، وربما بشرح مطول، إلا أنك قلت لي لتدارك إحراجي، بأن أجيب بنعم أو لا فقط، وبدأت تنهال عليّ أسألتك كحبات المطر الغزيرة ولا قدرة على الاحتماء بمظلة الكلمات إلا بما طلبته مني بلا أو نعم وحينما أوجه لك السؤال، كنت تقول لي: جوابي هو سؤالي ذاته، وحينما أريدك أن تجيبي فقط لأتأكد من مدى مطابقة أفكارك لي ومدى مشابھتك لشخصي أنت تبهريني جداً وكأنك أنا.

وكنت أسعد بكلامك ويمدى تطابقنا مع بعضنا وتشابه ميولنا وحبنا لذات الأشياء، وهل الحب يجمع المتشابهين مثلنا؟ وأنا التي كنت أعتقد بأنه يجمع المختلفين ليكملوا بعضهم البعض، أوليس المتشابهون كأقطاب مغناطيس يتنافرون؟ وهل ذلك فقط في قوانين الفيزياء ليس في قانون الحب، وأنت كنت قد شبهت وقوعك في حبي بقانون الجاذبية.

بدأت أنساق إليك دون شعور وتفكير وكأني قد نسفت بكل معتقداتي وكفرت بها ولحقت بأفكارك واعتنقت شريعة حبك ورأيت فيك نفسي حقاً حتى في بعض الصفات فيك التي أخبرتني عنها ولم ترقني لو سمعت بها في رجل آخر إلا أنني كنت أراها فيك تميزاً، عشقتك بكل ما فيك وبكل ما في من طاقة حب مع أنني لم أكن قد حررت مشاعري لتستحيل إلى كلمات أعبرك فيها عن حبي، حتى أنك تدمرت لعدم سماعك مني كلمة حبيبي وأنا أتحدث إليك، كنت أكتفي باسمك الذي حينما كنت أنطقه يخرج مبطناً بدانتيل الغزل.

مرت ساعتان على تواجدنا معاً، حينما وقع ناظري على ساعة الحائط فقلت:

-لقد تأخرت، ستفلق والدتي علي.

-لم أشعر بالوقت معك، ليتنا نبقي أكثر.

لم أستطع أن أجيبك سوى بابتسامة مع محاولة للهروب من أمامك، تناولت كتابين عشوائياً دون النظر للعناوين، استأذنت من العم كرم ومنك وهمت بالخروج، فأوقفتني بصوتك:

-ما بك يا مجنونة، لم العجلة؟

-لا شيء، تأخرت، أمي بانتظاري.

-لقد غابت الشمس منذ ساعة وحل الظلام، كيف ستذهبين لوحديك، دعيني أوصلك، سيارتي في الخارج.

-لا، لا، أنا لم أخبر أمي عنك بعد وقد أخبرتها بأني مع لورين، سأذهب لبيتها ليس ببعيد من هنا، وسترافقني إلى بيتنا.

-سأرافقك لبيت لورين إذاً.

وافقت على مرافقتك لي على الرغم من ترددي إلا أنني كنت سعيدة لأكسب وقتاً إضافياً برفقتك، سرنا معاً وكان الصمت هو الحاضر بيننا حتى وصولنا قريباً من منزل صديقتي، استأذنتك على متابعة السير وحدي، ودعتني بقبلة على يدي وقلت:

- سأبقى هنا حتى تصلين إلى بيت صديقتك وبعدها سأذهب.

تابعت المسير وحدي وأنت تراقبني حتى وصلت، لمحتك من بعيد كنت ماتزال واقفاً شعرت بأن قلبي بقي عندك.

لورين كان لها علم بلقائي بك، كانت بانتظاري في منزلهم وما إن وصلت استقبلتني ضاحكة :

- كيف كان اللقاء؟

- هيا رافقيني إلى بيتنا، وأخبرك بكل شيء.

في تلك الليلة انتظرت بشغف حديثك معي بعد ذلك اللقاء، لكنك لم تفعل، ظننت بأننا سنمضي الليلة ونحن نتحدث عن يومنا، أحببت لأن أستمع لرأيك بتلك الساعات التي مضيناها معاً ولأني شعرت بالشوق لك فما عاد لي صبرٌ لانتظار الصباح.

قضيت ليلي وأنا أتذكر كل لحظة وكل كلمة قلتها لي، حتى لمسة يدك ورائحة عطرِكَ التي ظلت عالقة على يدي.

لاحظت أُمي سعادتي وشرودي، كنت أتجنب النظر إليها لأني أشعر وكأنها ستراك في عيني وستعلم بكل شيء، كنت أخشى إخبارها عن علاقتنا، لأني أخاف إن علمت بذلك أن تمنعني عن حبك، على الرغم من أنها ليست ضد الحب بحد ذاته لكنها تخشى أن يتعلق قلبي بأحدهم وأُصاب بالخذلان.

كانت تحدثني دوماً عن قصص الحب التي سمعت بها وعن ما حلّ بأصحابها ولأن الحب كما ذكرت لي حينما يسكن في قلوبنا فهو كالبصمة التي لا تتكرر ولا تتبدل بأخرى وإن النسيان عصي على قلوب الصادقين.

قالت لي ذات مرة:

-أخشى عليك يا ابنتي من أن تؤذيك الدنيا، من فرح يستحيل حزناً ومن حبٍ يستحيل ألماً.

سألتها باستغراب:

-وكيف للحب أن يستحيل لألم يا أمي ؟ أوليس الحب شعور جميل؟

فأجابتنني:

-بقدر ما هو جميل ورائع ويمتلك كل الحواس بقدر ما هو مؤلم حينما يصاب الأحبة بوعكة الفراق، يصبح الحب ألماً مستعصياً عن الشفاء.

-ولماذا يفترق الأحبة يا أمي؟

-لا يختارون الفراق بل يختارهم كما اختارهم الحب من قبل.

-لكن هذا ليس عدلاً.

-يا ابنتي، تلك أقدار لا نستطيع التكهن بها ولا يد لنا فيها، لو كلّ المحبين استمروا مع بعضهم لما سمعنا أم كلثوم تغني عن عذاب الحب ولا قالت بأنها تخافه ولا قرأنا الروايات عنه ولكانت الحياة كلها سعادة محضّة، لون واحد، وبذلك ستصبح مملة حتى الحب بذاته سيصبح مملاً، لبات أمراً عادياً روتيناً يحدث كأى شيء عادي في هذه الحياة، لولا عذاب الحب ما كتب الشعراء المعلقات ولا سمعنا بقيس وليلى ولا عنترّة وعبلة ولا جميل وبثينة، ولما وصلت إلينا قصائدهم وتغنّت بها الأجيال، الحب جميل لكنه شقاء وهذا أجمل ما فيه فلا نتذوق الحلاوة إلا بعد أن نتجرع المرّ، فكيف للحب أن يكون شيئاً جميلاً وعظيماً إن لم يكن فيه عذاب لكن عذابه ليس بالأمر السهل فهو يحتاج لقلوب صلبة لتتحمله، الحب شيء رائع لكني أخشى عليك منه.

وقد صدق الشاعر حينما قال:

وما في الأرض أشقى من محبٍ وإن وجد الهوى حلو المذاقِ

تراهُ باكياً في كلّ حينٍ مخافة فرقةٍ أو لاشتياقِ

فبيكي إن نأوا شوقاً إليهم وبيكي إن دنوا خوف الفراقِ

فتسخن عينه عند التناهي وتسخن عينه عن التلاقي

كانت أُمِّي تحفظ الكثير من القصص والأشعار وترويها لي، كانت قد أمضت حياتها في القراءة، وهذا ما جعل لديها رصيد غني من ثقافة عالية.

كنت أصغي لحديثها وكأني أمام موسوعة، حتى أنها كانت تغنيني عن قراءة بعض الكتب لأنها تروي لي محتواها بإسلوبٍ شيق.

كنت أنتظر الوقت المناسب لإخبارها عنك، وعن حبنا لبعضنا، لكنني وفي كل مرة أنوي الحديث عنك أترجع وأفضل الصمت، لا أعلم ما الذي كنت أنتظره ولا إلى أي حدٍ ستصل إليه علاقتنا لأراه وقتاً مناسباً لإخبارها، ربما كنت أنتظر أن تتحدث عن مستقبلنا

وعن حياتنا معاً، عن بيتنا الذي سنكون فيه سوياً، عن خطوبتنا عن حفل زفافنا، أولادنا، كل تلك الأحلام التي ستجعل من حبنا حدثاً رائعاً وسعيداً، حتى أنني كنت أخشى أن أفتحك بهذه الأمور على الرغم من أنها شيئاً مهماً في أية علاقة، وحلم كل فتاة أن ترتبط بالشخص الذي تحب، وتصبح علاقتهما أمراً جدياً يعلم به الجميع، وأن تعيش معه عمرها كله بجلوه ومره.

لكن الوقت مازال مبكراً وعلاقتنا لم يمض عليها أكثر من ثلاثة أشهر لم نتقابل فيهن سوى مرة واحدة، لكنني كنت قد أدمنتك، أدمنت الحديث معك، أدمنت وجودك في حياتي، وكأن لي معك عمراً بأكمله.. انتظرت حديثك تلك الليلة كثيراً، شعرت بالضيق الذي عكر عليّ سعادتي بلقائك، لكنني بدأت باختلاق الأعذار لك كي يهدأ قلبي قليلاً، لربما كنت مثلي تتذكر لحظاتها معاً، وربما كان لديك عمل ما، لأني لم أجدك متوفراً على شبكة الإنترنت كما كنت تفعل كل ليلة، وربما كنت أبالغ في شوقي إليك.

ألا يكفي بأننا التقينا يوماً ولمست يدك وشعرت بوجودك وتأملت عينيك وطربت لسماع صوتك، ألا يعني ذلك عن الحديث لساعات على الإنترنت الذي يخلو من نظرات العيون وتبادل الابتسامات .

أغمضت عيني أتذكر تفاصيلك وملاحك حتى رأيتك في حلمي، وانقضى الليل سريعاً لم أجد نفسي إلا وأنا أطفئ المنبه في السادسة صباحاً، تناولت هاتفي المحمول على عجل لأرى إن وصلتني رسالة منك، بعد

دقائق أدركت مدى سذاجتي فالوقت ما زال مبكراً ولربما كنت نائماً، أرسلت لك رسالة نصية بعد نصف ساعة لأنني لم أعد أطيق انتظار وصول رسالة منك أو اتصالك فلم يصلني منك رداً عليها فزاد قلقي أكثر، خرجت إلى الصالة فرأيت أمي تجلس على الأريكة ويدها أحد الكتب الذي استعرتة من المكتبة تتأمله وتقلب في صفحاته، اقتربت منها أكثر فوجدتها تمسح دموعها وابتسمت لي، جلست بجانبها وسألته عن سبب استيقاظها في هذا الوقت وما الذي يبكيها وما تقرأه في الكتاب فقالت :

-ذاكرة الجسد لأحلام مستغامي، لهذا الكتاب ذكرى لن تمحي من ذاكرتي.

-وهل قرأته من قبل يا أمي؟

-بالطبع، كان من أحب الكتب إلى قلبي، أهدتني إياه صديقتي أول صدوره، زارتني حينها لتبارك بحملي بك، وقرأته بشغف ولكن بعدها خسرتة ولم أره منذ ذلك الوقت حتى هذه الليلة وما استطعت أن أنام حتى أعدت قراءته، له ذكريات جميلة وأليمة.

-احكي لي يا أمي ما قصتك مع هذا الكتاب.

حدقت بها بجميع حواسي وأنا استمع إليها وبدأت تسرد لي قصتها مع ذاكرة الجسد.

الفصل الثامن:

ذاكرة الجسد

إليك يا من قرأت امرأة من حروف فجعلتها مدينةً ترسم جسورها وتعشق حجارتها وأسكنتها ريشتك
فابتدعت في وصفها وعشقها.

حبك الذي خلّد ذكرها فرسمت وكتبت وتأملت وحلمت ..

إليك يا خالد، أيها الرجل الأسطورة، من مثلك يعشق بهذا الجنون؟

أم أنك رجلٌ من وهمّ مرسوم؟

أحلت الوطن ذاكرة... والذاكرة امرأة

والمرأة جسدٌ وفكرة وعبرة

فكيف لذاكرة الجسد أن تفنى وأن تشقى؟

أيا ليتك في الشام كنتَ والحروفي قرأتَ

ولنهر بردى وجبل قاسيون رسمت ..

أيا ليتني كنتُ الحياة التي تمنيت ..

يا خالد تعال وعلم الرجال الحب،

حب الوطن حب الذاكرة ..

كانت قد كتبت نيفين تلك الكلمات على نهاية رواية ذاكرة الجسد بقلم رصاص ولم تفكر بأن يأتي يوم
ويقرأ فيه أحد هذه الكلمات، إلا أن القدر قد ساق أخت رائد إليهم وهي تقوم بالتنظيف لم يمنعها
الفضول في تقليب الكتب التي في المكتبة على الرغم من عدم حبها للقراءة ولا اهتمامها فيها ولطالما كانت
تسخر من نيفين لتمضيتهما الوقت بينها، فوقع ناظرها على تلك السطور التي كتبتها نيفين في آخر الكتاب
كعادتها حينما تنتهي من كل كتاب، فتترك فيه بعضاً من حروفها بعدما تتأثر بالشخصيات والأحداث .

وحيثما قرأت رويدة تلك الكلمات وكأنها وجدت شيئاً تدين به زوجة أخيها، فكتمتها في نفسها حتى عودت رائد من العمل، فأخرجت له

الكتاب وفتحت له على تلك السطور ولجهله لم يستوعب ما كتبه نيفين، فظن أنها تعشق أحدهم وتكتب له، فأرغى وأزبد وذهب إلى غرفة نيفين غاضباً يصرخ في وجهها:

-لقد كشفت نفسك ، تحبين رجلاً آخر وتكتبين له؟

مسكها من شعرها وجرها على الأرض ثم ضربها على وجهها وهي لا تعلم ما يقوله ومن صدمتها أغمي عليها.

فتوقف رائد فوق رأسها لا يعلم ما حدث لها، اعتقد بداية الأمر بأنها تمثل عليه، فركلها برجله وعندما لم تبد أي ردة فعل، خرج مسرعاً ينادي على رويدة التي أتت بدورها إلى غرفة نيفين، لتجدها ممددة على الأرض بلا حراك، فشعرت بالخوف والذنب بأنها السبب فيما حدث، ولكنها ما لبثت أن تمالكت نفسها وقالت:

-إنه دلع النساء، هيا احملها معي إلى السرير وستصحو بعد قليل.

حملها إلى سريرها وبدأت رويدة برش الماء على وجهها وعندما لم تستيقظ ذهبت إلى المطبخ وكسرت رأس بصل وأتت به إلى نيفين تفرك به أنفها، فاستفاقت على تلك الرائحة الواخزة وما إن رأتهم حتى انكلمت على نفسها مرتعبة.

نظر إليها رائد نظرات غضب فضرب بيده الحائط وغادر المنزل.

بدأت دموع نيفين تنهمر غزيرة على خديها لا تعي ما حدث ولا تعلم سبب هجوم زوجها عليها وما كان يقصد به مجبها لغيره، لكنها شكت بأن تكون كذبة من كذبات أخته للتخلص منها، أما وهي في هذه الحال وتحمل في أحشائها جنيناً سيكون ابن أخيها، فتلك جريمة بحد ذاتها ، أيعقل بأن تصل بها الكراهية إلى هذه الدرجة ؟ ووضع نيفين الصحي لا يحتمل حزناً فكيف ستتحمل ضرباً وركلاً وإهانةً.

بدأت تشعر بالآلام في البطن، ارتعبت لأن يكون النزف قد عاد إليها وبدورها رويدة قد خافت بأن تكون السبب في أي مكروه قد يحول دون إتمام الحمل، شعرت بالندم وهرعت إلى الجارور أخرجت منه الدواء

وناولته لنيفين واقترحت عليها بأن تتصل بالطبيبة، لكن نيفين رفضت فلم يهتما منذ تلك اللحظة إن استمر الحمل أم لا، بعد تلك الصدمة التي تعرضت لها من قبل رائد.

- لا أعلم ما أقوله لك، لكن لا يجوز لامرأة متزوجة مثلك لم يمر على زواجها العام وحاملاً بيكرها أن تكتب الرسائل للرجال وتتغزل بهم وتُبقي الرسالة في كتابٍ في بيتها، ألم تخشي بأن يراها رائد؟

- أي رسالة تقصدين وأي كتاب؟

سألتها باستغراب وهي تمسح الدموع عن عينيها وتتمالك نفسها.

أجابتها وهي تدعي بأنها تتذكر:

- تلك التي في نهاية الكتاب لم أعد أذكر اسمه.

ابتسمت نيفين ابتسامة استهزاء وقالت:

- ليست رسالة لأحد، أنا فقط حينما أنتهي من قراءة كتاب ما، أكتب بعض الكلمات لأبطالها بما يوحيه لي المحتوى، كي لا أنسى ما قرأته.

بنظرات استغراب وتعجب رمقت رويده زوجة أخيها وكأنها تستمع لمن فقد عقله أو لأحد يهذي، فاغرة فاها وواضعة يدها عليه، ويدها الأخرى تسند خصرها الممتلئ ثم قالت لها:

- لم أفهم كيف ذلك، ماذا يعني بأنها ليست رسالة، وهي موجهة لأحدهم، هل تحاولين خداعنا؟

كتمت آلامها مغمضة عينيها ويديها على بطنها، تعض بأسنانها على شفثيها، كيف ستفهمها وهي لا تستوعب، وكيف تشرح لها شيئاً لا تدركه أميتها وهي لم تقرأ كتاباً قط سوى الذي تعلمته في الابتدائية، ولم تسمع بقصص غير قصة باسم ورباب وبيت الجد وقن الدجاج.

كيف لها أن تعلم بأن هناك عالم آخر أكثر اتساعاً وجمالاً من بيت أبيها، عالم يكمن في الكتب بين الأوراق وهناك بشر يسكنون فيه، لهم حياتهم التي يبهروننا بما بعيداً عن المال الذي تنتعم به في بيت أهلها، والتي رفضت لأجله جميع من تقدموا لخطبتها لأنهم لا يجارون والدها بغناه ولا تطبيق أن تعيش حياة أقل مما

تعيشه، دون أن تفكر في تحريك عقلها الذي لا يعمل سوى في التفكير في الفساتين التي ترتديها والحلي الذي تتزين به، وأنواع الطعام والحلويات التي تلون بها مائدتهم.

لا تعلم بأن الغنى؛ غنى الروح والعقل والفكر، وبأن العالم واسع جداً والسعادة ليس محصورة في الماديات. كانت نيفين تترفع عن كل الماديات حتى أنها لم ترتدي حلي زوجها ولم تكن تهتم بملء خزانها بالفساتين الملونة ولا الحقائب الثمينة ولا مساحيق التجميل التي تلون بها الفتيات وجوههن ليبدن أكثر جمالاً، فالجمال عند نيفين هو ما منحه الله لها وجمال روحها وغناها بالعلم والمعرفة، فكل كتاب تقرأه كانت تزداد ثراءً روحياً وجمالاً ينعكس على وجهها، ولكن من يهتم ومن ستتقاسم معه سعادتها فيما تقرأ، والذين يحيطون بها يرون بأنها تقوم بأمر تافه، هدر للوقت، حتى أن زوجها قد أخبرها يوماً؛ بأن كل ما تقرأه لا يعنيه، ولم يقف عند رغبتها في شراء الكتب لها وتخصيص مكان في البيت لتلك الكتب، إلا ليثبت لها بأنه غير عاجز على فعل ذلك، وبأنه يملك مالاً يستطيع به شراء كل شيء، وبعد ذلك بدأ يعبر لها عن سخطه منها ومما تقرأه، لأن باعتقاده بدأ يؤثر على عقلها وعلى علاقتها معه.

إلى أن جاء ذلك اليوم الذي رآه رائد حجة له ليتخلص من تلك الكتب التي كان يشعر بأنها تجثم على قلبه، فعند عودته مساءً وبعد العشاء بدأ بحرق الكتب في الموقدة أمام مرأى أخته التي بدأت بالضحك شماتةً، وحينما رآته نيفين اتهالت عليه ممسكة بيده التي وهو يهيم برمي أحد الكتب في النار، بدأت بالبكاء راجيةً إياه بأن يتوقف عما يفعله لأنها تشعر بأن قلبها يحترق مع تلك الكتب.

قال لها:

-أخبريني من هو خالد بن طوبال هذا وكيف تتواصلين معه.

انهارت على الأرض باكيةً واضعةً يديها على وجهها ثم تابع سؤاله:

-والله لولا حملك ووضعك لرميت بك خارج هذا البيت لكن سأصبر عليك حتى تنجي ابني وسأخذه وأنت لا ردك الله سأعيدك إلى أهلك.

صدمت نيفين لما سمعته من زوجها وأمسكت بيديه وهو يبعتها عنه ثم حاولت تمالك نفسها لتتكلم قائلة:

- أرجوك اسمعني لأشرح لك، والله لا يوجد شيء من هذا القبيل خالد بن طوبال بطل في رواية.

أبعدها عنه غاضباً وقال:

-هل تريدان أن تضحكي علي، بطل في رواية وتكتبين له بهذه الطريقة؟ أم أنك تحبين أحداً ما و تطلقين عليه اسم بطل رواية، يا لك من ساقطة.

-لا أسمح لك بأن تقول عني هذا، فأنا لم أحب من قبلك لأحب بعدك، فأنا لم أعرف رجلاً غيرك ولا تنسَ بأنك تقوم بقفل باب المنزل علي من الخارج وتقطع خط الهاتف كي لا أتصل بأحد وأبقى بين كتبي أو في المطبخ أعد لك الطعام حتى عودتك، على كل حال إن كنت تشك في كلامي فأنا مستعدة للذهاب إلى بيت أهلي الآن، وابنتك لا أعتقد بأنه سيصمد في بطني طويلاً.

تبدلت نظرات رائد لها وعاد إليه هدوءه قليلاً ثم قال:

-حسناً إذن، وما قصة الرسالة ولمن كتبتها؟

مسحت دموعها بكلمات يديها وأخذت نفساً عميقاً ثم قالت له:

-تعلم بأني أقرأ الروايات وهي جميعها قصص وحكايات خيالية أو ربما كانت واقعاً، وأنا حينما أقرأ، أحب أن أكتب شيئاً عما قرأته في نهاية كل كتاب.

نظر إليها رافعاً حاجبيه باستغراب.

-وبهذا الأسلوب تكتبين وكأنك تخاطبين أحدهم؟

-نعم، أنا أكتب مخاطبة أبطال الروايات، أحب هذه الطريقة، فأنا أرى فيهم أرواحاً حقيقية وأسمع أصواتهم من بين الأوراق، أشعر بهم، فأترك لهم الرسائل في الكتاب وهذا ما يساعدني أيضاً بأن لا أنسى ما قرأت.

هز رأسه متأسفاً وبدأ يقلب كفاً بكف ويقول:

- وا حسرتاه يا رائد الشامي فلقد تزوجت بامرأة مجنونة.

سحبها من يدها وساقها إلى سريرها، ورويدة كانت مذهولة لكل ما سمعته وبدأت تتمتم لنفسها:

- يا أيتها الساحرة كيف استطعت الضحك على أخي وكيف صدقتك، لربما فعلاً أنتِ مجنونة، لا عليك يا أخي سنزوجك غيرها.

طلب رائد من زوجته أن تلازم السرير وتتناول دواءها ، لكنه أحزنها حينما قال لها بأنه سيجمع الكتب ويضعها في المخزن، لأن القراءة تؤثر على عقلها وهو لا يريد أمماً مجنونة لابنه.

مرت الأشهر وهناً على وهن، تعب الحمل من جهة ونفسيته التي ساءت بعد تلك الحادثة، فباتت تشعر بفراغ كبير يسيطر على حياتها لكنها كانت تسلي نفسها في انتظار مولودها وكانت تحادثه كثيراً وتكتب وتخبئ ما تكتبه من زوجها.

ومضت الأيام على مضض، بدأ رائد يغيب كثيراً خارج البيت وازدادت سهراته وعودته مخموراً، وبدأت تصرفاته تزداد غرابة إذ أنه أخذ كل مصاغ نيفين موهماً إياها بأنه سيدخل في تجارة مستقلة عن والده؛ الذي كان يفرض عليه العمل في متجره مخصصاً له معاشاً شهرياً، ولم يكن لها أي علم بما يدور خارج جدران البيت الذي تلازمه، وازداد سجنها فيه بعد حملها، ولم تكن تخرج منه إلا للكشف عند الطبيبة برفقته، وبعد الإلحاح عليه يوصلها لبيت أهلها لترى أمها وأبيها ثم يعيدها إلى سجنها مجدداً، إلى أن فاجأها آلام المخاض على حين غرة في يوم لم يكن بالحسبان، كتلك الآلام التي تدهام أجساد المعتقلين وراء قضبان الظلم فيستبشرون خيراً بما بأنها أنت ساعة الخلاص، فإما الذهاب إلى المشفى للعلاج وذلك بعد أن يكونوا قد استنفذوا آخر طاقة لهم على تحمل الألم ويكون الجلاد بحاجة لأن يستبقه على قيد الحياة ليتلذذ أكثر في تعذيبه، أو إلى الحرية المطلقة حيث الروح في السماء ويوارى الجسد في التراب.

كانت آلامها تزداد شيئاً فشيئاً، جثت على ركبتيها تحاول أن تستعيد أنفاسها مع كل انقباضة لتلك الروح التي في أحشائها، تنكمش على نفسها وتعض على شفيتها لتكتم صرخات تكاد لو أطلقتها أن تشق الجدران، لا حيلة ولا سبيل لها لطلب المساعدة وباب البيت موصد والهاتف لا يعمل وما يزال الوقت عصراً وباقي على عودة زوجها عدة ساعات.

الروح تنتفض والألم بات أكثر شراسة وتلك الروح في رحمها تصارع لأن تخرج إلى الحياة، تركزل بأقدامها الصغيرة جدران ذلك القرار المكين، تذكرت نيفين السيدة مريم عليها السلام وكلماتها حينما قالت «ياليتني متُّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً»

حينما تشتدّ بنا الآلام ونشعر بأننا شارفنا على الموت فإننا نتمنى لو أننا قد فارقنا الحياة منذ زمن، لأننا نموت مرأتٌ ومرات ونعود لتذوق ذات الألم فنتمنى لو أن الروح فارقت الجسد ولا بقينا نشهد صراع الروح مع ألم الحياة مراراً وتكراراً.

نيفين تصارع ألمها وحدها في سجنها لا حيلة لها ولا دراية بما سيؤول إليه حالها، ولا سبيل للنجاة من تلك الآلام، وماء الحياة قد تفجر من بين قدميها وانقطعت أنفاسها حتى ارتمت على الأرض فاقدةً وعيها، لكن ربها رحيمٌ بها، ساق إليها زوجها بعد خلاف دار بينه وبين أبيه لأنه طالبه بزيادة معاشه بحجة أنه ينتظر مولوداً.

وما إن وُلج إلى الداخل حتى رآها جثة مرمية على الأرض، سارع إليها محاولاً إيقاظها وما إن رأى ذلك السائل على الأرض وعلى ثيابها حتى قام بحملها وهرع إلى سيارته ذاهباً بها إلى المشفى.

أسرع طاقم الإسعاف في نقلها إلى غرفة المعالجة ومن ثم إلى العمليات بعدما أقرت الطبيبة بأنها تحتاج إلى عمل جراحي عاجل خوفاً على الجنين من الاختناق، وحالة الأم المتعبة لن تساعد على مقاومة الألم أكثر.

وبدوره ذهب رائد لأن يأتي بأمه وأم زوجته لانتظار ولادة حفيدهم الأول.

دقائق من الانتظار والأعين ترقب بشوق، تنظر إلى نهاية الممر حيث غرفة العمليات عسى خيراً يسر قلوبهم ولكن ما من أحد أخبرهم بما يجري في الداخل بعد ولا صراخ طفل يبشر بحياة جديدة.

اعتزى القلق أم نيفين التي انحط جسدها على المقعد المكون بالقرب من غرفة المرضى، ورائد يقيس بخطواته المكان ذهاباً وإياباً وأمه تتمتم بآيات قرآنية ودعوات، وأياد الأطباء تحاول إغلاق جرح نيفين النازف ورحمها المتهتك بعدما عانت من آلام الطلق الشديدة.

بعد ساعة خرجت الممرضة لتزف لهم خيراً بقدوم مولودة لكن بسبب وضعها الصحي ؛ وُضعت في الحاضنة، بعدما كادت أن تتعرض للاختناق وهي تصارع في رحم أمها لتخرج للحياة.

ونيفين نُقلت إلى العناية بسبب النزيف الشديد الذي حصل معها أثناء الجراحة .

غادرتهم الممرضة وهم يقلبون كفاً بكف، ضرب رائد بيده الحائط غضباً:

-تباً لقد أنجبت بنتاً.

أمسكته أمه من كتفه محاولةً تهدئته:

-ألف مبارك يا بني لقد غدوت أباً، بنت أم ولد المهم السلامة، والتي تنجب البنت تنجب الولد، ما زالت الحياة أمامكم.

ثم استطردت قائلة:

-لكن لماذا لم تخبرني بأن آلام الطلق قد داهمتها، لم تتصل بي ولم تخبر حتى والدتها.

-الهاتف معطل.

-إذن لماذا لم تذهب لعند جارّتها وتخبرها وتتصل بي أو بوالدتها، كيف تحملت كل تلك الأوجاع.

مسح رائد وجهه ورأسه بكفيه ورتب هندامه ثم نظر إلى ساعة يده قائلاً:

-لا أعلم، لا تسأليني، سأترككم الآن وأذهب إلى العمل، تركت والدي لوحده.

-بأمان الله يا بني.

غادر رائد المشفى وجلست أمه بالقرب من والدة نيفين تهدئ من روعها وتطلب منها أن تلازم الدعاء

فقط لأنها لم تتوقف عن البكاء منذ علمت بوضع ابنتها.

صارعت الأم ومولدها لأجل الحياة وخرجتا من ظلمة اللاوعي لتستيقظا على واقع يرتدي قناع الحياة زيفاً،

يسخر الموت من معاندتهما له، ليوقع لهما تعهداً بأن يشهدا كل فصوله ويتذوقا طعمه على مائدة الأيام.

الفصل التاسع

اختبار الفراق

أنهت أمي حديثها عن تلك الذكريات التي ما تلبث أن ترافق دموعها كلماتها في كل مرة تفتح فيها حقيبة الذكريات القديمة، وتنبش منها ما قد لازم ذاكرتها وبات محفوراً بداخلها، كنت قد حضرت القهوة لكلينا واحسبناها معاً ولم أتركها حتى هدأت نفسها قليلاً.

دخلت إلى غرفتي فتحت خزانتي وانتقيت منها ثياباً ارتديتها وذهبت لعملي وبقيت طوال الوقت وأنا أنظر إلى شاشة هاتفي التي لم تضئ باتصال منك أو رسالة، لم تكن تلك من عادتك وأنت الذي كان لا يدع يوماً إلا ويحدثني فيه منذ ساعاته الأولى.

لازمي الصمت والشروع طوال الوقت، حتى أتي لم أستطع أن أركز على التقرير اليومي الذي أكتبه، ولم أستطع تلبية دعوة أصدقائي في الذهاب إلى المطعم المجاور لتناول وجبة خفيفة أو احتساء القهوة، آثرت البقاء في مكنتي أنتظر منك رداً على رسالتي التي أرسلتها لك صباحاً.

اعترايني قلقٌ داهمني لأول مرة منذ عرفتك، شيء أشبه بشلل أوصالي وعقلي، منعت نفسي من أن أقوم بالاتصال بك مجدداً وأختلق لك الأعذار عساها تهدئ من انقباضة قلبي التي لم أجد لها أي تفسير. عدت إلى البيت وانكبت على أوراقتي أشكو لها قلقي وحيرتي، ماذا أكتب في روايتي التي بدأت فيها منذ التقينا وبدلت البداية التي كنت قد اختلقتها لعاشقين غيرنا قد افترقا، فجعلتها لقاءً لنا دون أن أفكر بسير الأحداث، ولا بما سيحدث ولا كيف ستكون النهاية، وكنت أكتبك فلا تجعلني أكتب عنك شيئاً لا أحبه، لا تجعلني أذكر بأنك غبت عني يوماً دون أن تسأل ودون أن تفكر بأني سأنتظر حديثك وسأقلق لغيابك، وكان ذلك اليوم غيابك الأول لم يكن طويلاً حسب ما يقوله المنطق لكنه بمنطق شوقي كان طويلاً جداً.

رن هاتفي عصرًا فالتقطته على حين لهفة، شعرت بأن حزناً كان كالجبال قد انزاح عني حينما تسلل صوتك إلى مسمعي، فنطقت دون إدراك مني: اشتقتك.

وكأنك تعمدت غياب تلك الساعات لتحرض شوقي إليك، وكأنما نصبت فخاً لحجلي لتصطاد من فمي ما تحب أن تسمع وما تحفظت طويلاً أن أقوله.

كيف لا أشتاق وأنا أتلهف لرؤيتك ولسماع صوتك وأنت تراسلني، فكيف لي أن أكون في غيابك؟. لكني لم أكن بتلك المرأة التي كنت تتمتع بها وأحسدك عليها حينما تعبر لي عن كل ما في داخلك، ومنذ ذلك اليوم تعلمت أن لا أكنتم شعوراً ولا أخفي عنك أي رغبة، رغبتني بأن أقول أحبك.. وأشتاقك.. دون توقف.

وكان لنا لقاء آخر، ارتديت شوقي على عجل، وجلست على مقعد اللهفة في مقهى مجاور للصحيفة. أقبلت عليّ بحضورك المهيمن والذي طغا على كل الحاضرين، برائحة عطرك التي قبّلت حواسي واحتضنها قلبي شوقاً.

التقت أعيننا لتختصر علينا ساعاتٍ من الكلام الذي كنا نتبادله بحروف على وسائل التواصل، والتي غالباً ما كانت تنتهي على عجل، فلا تطفئ نار شوقي ولا تروي عطش حواسي.

قبل أن تنادي على النادل سألتني:

-ماذا تحبين أن تشربي؟

-خمرة حبك.

-وأنا أريد أن أنتشي بلون البن في عينيك.

-إذن لا داعي لأن تطلب شيئاً.

-لا بل أريد أن أطلب منك.

-ماذا؟

-أنت.

ابتسمت خجلاً، وهربت عينا من عينيك اللتين كانتا ستلتهمان عيني على مائدة الشغف، أطلقت نظري في النافذة المجاورة، حتى انتشلتُ كلماتي التي غاصت في حنجرتي ثم قلت لك:

-وأنا لي طلب عندك.

-اطلبي

-لا تغب عني أبداً.

-لن أغيب يا مجنونة.

-عدني.

-أعدك.

ثم أمسكت يدي، فارتعش قلبي وانتفض وبات يصرخ في داخلي؛ لا تغادرنني أبداً.

أسعدك تغيري وانفتاحي معك وتحرر كلماتي التي كنت أفيدها بسلاسل العادات والتقاليد، واعتنقت شريعة حبك التي وضعنا قوانينها معاً وكسرنا كل الحواجز بيننا، فازددت عمقاً في بحرك، لم أخش الغرق ولا الضياع وكنت على يقين بأن تقود مرساة سفينتنا إلى موانئ الأمان والخلود.

تغيرت حياتي كلها منذ عرفتك، واتخذت أيامي منحاً آخر، كم كنت أفتقد لهذا الإحساس قبلك، الشعور بالانتماء لأحدهم، فأجمل ما في الحب أن تشعر بالانتماء لمن تحب، وكأنك أغلى ما أملك، حتى الأمان الذي افتقدته في بلدي وفي الغربة وجدته معك، وبات التفكير في فقدانك أمر يزعجني ورغبتني في الارتباط بك رسمياً باتت أكثر إلحاحاً.

لم أعد أتقبل وجود رجل آخر في حياتي حتى ولو كان صديقاً. في العمل بثُّ أكثر انزعالاً ولم أعد أتبادل الأحاديث مع زياد الذي لاحظ تغيري معه، وبدأ الأمر يزعجه حتى ضاق ذرعاً واقتحم مكتبي ذات يوم ودعاني لشرب القهوة، وكعادتي اعتذرت له بحجة انشغالي في الكتابة.

في السابق كان ينسحب من أمامي دون أي كلام أو أسئلة، لكن ذلك اليوم انفجر سيل الأسئلة من جوفه وأغرقتني بها حد الذهول:

-لماذا ترفضين دعوتي في كل مرة، وأنت التي لم تتوان يوماً عن مرافقتي، هل بدّر مني شيء أزعجك؟

-لا يا زياد ما هذا الكلام، أنا بجد مشغولة.

-تذرعين دائماً بهذه الحجة كي لا نجلس معاً كما السابق، لماذا تتهريين مني؟

تركْتُ القلم من يدي ونظرتُ إليه، حاولت أن أخفي ما في داخلي بأني لا أريد الجلوس مع أي رجل غيرك مهما كانت صفته، وفي ذات الوقت لم أكن أريد أن أجرحه، لأني بالفعل قد تماديت في صدي له، لكنه فاجأني حينما جلس أمامي وانفجر اعترافاً بعدما كان يغلي صمتاً.

-سأتي لطلب يدك من والدتك اليوم، ما رأيك؟ لم أعد أطيق الصمت يا سارة.

ذهلتُ لما يقوله ولم أستوعب ما يعنيه، ابتسمت ببرود وقلت له:

-أنت بمثابة أخٍ لي يا زياد.

-كفاك، أرجوك، لقد أرهقتني هذه الكلمة كثيراً.

ذهب كلامه بذاكرتي إلى ذلك اليوم الذي سألته فيه عن فتاة أحلامه حيث كنت أراشقه بالأسئلة وهو يراوغ بالأجوبة، كي لا يعترف لي بأني تلك الفتاة التي يهيم حباً بها، ولم أشعر بحبه على الرغم من اهتمامه وتودده، هل لأن قلبي كان يهيم لك المسكن وحدك فلم يرَ قبلك ولا بعدك أحداً؟.

تركْتُ المكتب حينها وخرجت، لم أعد أستطيع البقاء أمامه ولا الاستماع إليه، وأنا التي جربت الحب، بثُّ أعلم يقيناً ما يضي قلبه وكم يشعر من ألم.

لكنه ليس ذنبي لأنني منذ البداية قد وضحت له طبيعة العلاقة بيننا، حتى هو كان يتقبل مني ذلك وكان يعلم إن اعترف بحبه لي سيخسرني وحدث ما يخشاه.

وكلتُ لورين بالنيابة عني لتوضح له حقيقة مشاعري التي لا تخفى عليه، ورفضني القاطع للارتباط والزواج لأجل أن لا أترك أمي وحدها، مع أنني لم أكن أفكر بهذا الأمر حينما أحببتك، وبثُّ أحلم بالزواج منك والارتباط الأبدي بك، وكنت أتردد كل فكرة تراودني وربما أشعر بأنها قد تقف عائقاً أمام أحلامي معك، أو تُقلق سكينتنا حيننا وتوقظ في نفسي وهم الفراق.

ظل زياد بعد ذلك يتغيب عن العمل حتى قدم استقالته وغادر القاهرة وفي نيته العودة إلى فلسطين للالتحاق بالجيش.

أصابتني الكآبة وأحزنتني ما جرى، وتمنيت لو أن زياد لم يجبني يوماً ولم يتمادى في سقف أحلامه معي، حزنت لأجله ولأجل نفسي لأني افتقدت أحاً وصديقاً، لظالما كان يستمع إلي في كآبتي ويحاول أن يزيح عن قلبي الهم، وأنا بالمقابل زرعت في قلبه جرحاً لا يُسى. وما ألمني أكثر حينما ودعني قبل رحيله، لم أستطع اقناعه بالعدول عن جنونه، فأخبرني بأن لا إقامة له في مكان لم يجد فيه قلباً يأويه، وهو اللاجئ أينما حل، ولن يستطع أن يراي أمامه ويحترق أكثر، ولن يتقبل فكرة ارتباطي بأحد إن تم هذا الأمر يوماً، لذلك اختار العودة إلى وطنه ليمنحه قلبه بعدما تمنى لي حياة سعيدة، وقد قال لي كلماته الأخيرة:

-أحبك وفلسطين، ولأنني لم أستطع امتلاك قلبك، باتت عودتي حتمية، فلسطين القلب الذي يستحق أن يُحب، وهي الأرض التي لها الحق في أن تضم جسدي، وعسى الله أن يمنحني شهادة على أرضها.
لم أحدثك عن زياد في تلك الفترة وكنت حينما تراسلني لا أستطيع إخفاء حزني واكتئابي عنك وكأني أريد منك أن تخفف عني دون أن تعلم بشيء أو أن تواسيني بكلمة واحدة، لكنك كنت تبادلني بالصمت وبالسطور الفارغة ثم تنهي الحديث على عجل.

ازداد تعلقني بك تلك الفترة، وبات شبح الفراق يخيفني، وفقداني لزياد أحيا مشاعر الخوف داخلي، لأن الحياة اعتادت أن تفجعني بالفقدان، مذكبرت وأنا أفقد كل من تعلقت بهم من أصدقاء، كانت الحرب تحكم علينا بأن نلتق ثم ما تلبث أن تبعثرنا وتناى بنا كل واحدٍ في بلد، لنبقى على تواصل لفترة قصيرة ما يلبث إحدانا أن تلهيه مشاغل الحياة عن الآخر، لكن هذا الفقدان لم يكن أشد قسوة من ذاك الذي يحكمه الموت علينا، في بلدي كان الفقدان فجعية، والحزن يساوي عمراً بأكمله.

لكن فكرة خسارتك كانت تشل أركاني، وكأنك الوحيد الذي أملك في هذه الحياة، وكنت كذلك بالفعل، فكيف لو فقدتكَ؟

بات الخوف والوهم لوحده يقتلني من الداخل، حتى بثُّ أرسلك طوال اليوم ولا أكف عن سؤالك إن كنت ستتمل مني يوماً، لكنك كنت تطمئنني دوماً وتضع الموت هو القاضي الوحيد الذي من الممكن أن يفرقنا في هذه الحياة، ومع ذلك ما إن تغب عني لساعات حتى يعود القلق مرة أخرى.

كان حزن أمني ملجئي بعدما ترهقني الأفكار وكنت أتقصد أن أضع رأسي في حجرها وأجعلها تحدثني عن قصص قرأتها أو حوادث مرت بها.

حدثتها عن زياد وعن رحيله، حزنت لأجله كثيراً، وقصت لي حكاية الشاعر زياد الذي قرأت عنه في كتاب ذاكرة الجسد، فقد اتفق معه بالاسم والوطن وقرار العودة لكنه اختلف عنه بالحب، فخشيت أن يتفق معه بالاستشهاد.

- اشتعلت نيران الفضول لأقرأ هذا الكتاب.

- اقرئي، وستعجبك شخصية البطل خالد بن طوبال.

- ما الذي يميزه؟

- قلبه، حبه، وطنيته، إخلاصه، لا أحد يشبهه، في واقعنا لا يوجد رجل مثله.

- هل تقصدين لا يوجد حبٌ صادق إلا في الكتب؟

- رُبما.

- رُبما يوجد يا أمي.

- قلتُ رُبما.

رفعت رأسي من حضنها ونظرت في عينيها وكأني أرتحي منها أن تخبرني بما يطمئن قلبي، سألتها:

- وهل اجتمع البطل مع حبيبته في القصة؟

- لا

انتفض قلبي لما سمعته ثم قلت:

- ولم؟

- اقرئي الكتاب بنفسك وستعلمين السبب.

- لا أريد أن أقرأ شيئاً عن الفراق.

- لكنه محكوم علينا يا ابنتي.

شعرت أومي باضطرابي وقلقي، ولم تسأل ما أخفيه عنها، كنت أشعر بأنها تعلم كل شيء لكنها تركتني لأبوح بنفسي، وأنا كنت أخشى إخبارها عنك لأنها سترفض فكرة أن نلتقي دون أن تكون بيننا علاقة رسمية وأنت كنت قد أجلت هذا الأمر حتى تنهي بعض أعمالك.

سحبتني إلى جانبها وأعدت رأسي إلى حجرها ثم قالت لي:

- ما أخبار روايتك؟

- أهملتها منذ أيام ، بانتظار أن تحدثني أكثر.

ابتسمت وقالت: حسناً سأكمل.

الفصل العاشر:

الورطة

تتعافى نيفين من جراحها الجسدية لتسكنها جراحٌ نفسية أشد أماً وضراوة من سابقتها وما يسليها قليلاً سوى تلك الأيدي الناعمة وهي تداعب وجهها وتلامس شفيتها، ناظرةً إلى عينيها الغضبتين اللتين لم تريا زيف الحياة بعد ولا تلوثتا ببشاعتها، تضمها إلى صدرها لتستمد منها الأمان والحب والطمأنينة وكأنها بحاجة إلى ذلك الحضن الصغير لتأوي إليه، أكثر من حاجة صغيرتها إليها.

وعسى أن يكون من اسمها نصيب، و تعوض أمها فيها ما لم تستطع تحقيقه أو عيشه.

وقع الاختلاف على الاسم قبل خروجهم من المستشفى كانت رغبة نيفين أن تطلق عليها اسم حياة أسوءً ببطلة ذاكرة الجسد علّها الحياة تمنحها فرصة جميلة لكن رائد كان مصراً على أن يسميها على اسم والدته حسب المتوارث لديهم، فقبلت راجيةً أن ترى السرور وأن تسعد في أيامها القادمة.

لم يغير رائد من عاداته في التزام الصمت في البيت بل زاد صمته أكثر وبدأ يتذمر من بكاء ابنته ليلاً، فتذهب بها نيفين إلى غرفة المعيشة حتى تنام صغيرتها على يديها وتنسى نفسها معها حتى الصباح.

كبرت الرضيعة قليلاً وباتت تتجول في البيت حبواً تلاحق أمها حيث تذهب، تؤنس وحدتها و تكسر صمت البيت الموحش.

اشتاقت لأن تعود إلى كتبها وأوراقها وأرادت أن تكبر ابنتها بينها لتجعلها شبيهة بها وترزع فيها حب العلم حتى ولو لم تعلم الصغيرة ماهية هذه الأشياء التي تضعها أمها بينها وتجعلها ترسم خطوطاً على الأوراق إلا أنها تريدها أن تكبر وهي تألف القلم.

تصرفات رائد باتت أكثر غرابة، حيث لازمه القلق ولم يعد يلي احتياجات البيت بذريعة أن والده لا يعطيه مالاً كافياً، كان دائم التفكير لكنه لا يبوح بما يدور في خلدته وإن حاولت زوجته أن تجعله يتحدث، يصرخ في وجهها بأن تكفّ عن الأوهام ويطلب منها أن تعني بالبيت فقط وبابنتهم التي لم يحملها بين ذراعيه بعد، فقد كان يكتفي بتأملها وهي تلعب أمامهم، وتسرُّ نيفين لرؤية ذلك.

ذات يوم عاد إلى البيت مسرعاً، قاصداً غرفة النوم، فتح الخزانة وبدأ بالبحث فيها على عجل، وحينما لم يجد ضالته، بدأ برمي الملابس في أنحاء الغرفة وهو يزجر غضباً، دخلت عليه نيفين لتسأله عما يريد، لكنه لم يلتفت لها وترك أشياء الغرفة مبعثرة وخرج.

كانت تتوجس خيفة من أفعاله وصمته وتخشى من أن يكون قد تورط بأمر ما، بعدما سمعته ذات يوم وهو يتحدث على الهاتف همساً، ويخرج من البيت في ساعات متأخرة من الليل.

ولجت إلى الغرفة لترتب ما بعثره، ثم ذهبت إلى الحمام لتكمل عملها، بينما كانت تقوم بالتنظيف لمحت كيساً شفافاً فيه مسحوق أبيض، حملته وقلبته بين يديها ولم تتعرف على ماهيته، لكنها توقعت أن يكون الشيء الذي يبحث عنه رائد، فوضعت في الخزانة بين ملابسه لحين عودته.

في أثناء انشغالها بالتنظيف أصابها هاجس الخوف بأن يكون ما وجدته ليس إلا مواد ممنوعة لأنها قرأت عن مثل هذا الأمر.

انشلت أوصالها وبدأت ترتجف واعتراها خوفٌ شديد وتساؤلات كثيرة راودتها إن كان زوجها مدمناً على مثل هذه المواد أم لا، لكنها لم تلاحظ أي تأثير على نمط سلوكه كما كان الخمر يفعل به.

لم تعلم ماذا تفعل وكيف ستنقذ زوجها من هذا الطريق الضال الذي سلكه، وماذا سيؤول إليه الحال بهم وبمستقبلهم وكيف ستكبر ابنتها تحت رعاية أب مدمن وهو من عائلة شامية عريقة ومعروف عنها التزامها وتمسكها بالدين.

أدركت هذه الساعة لماذا باع حليها ولم يعد المال متوفراً بين يديه مثل ذي قبل، وتصرفاته الغريبة وتوتره في الفترة الأخيرة يدل على أن مكروه ما حلَّ به.

جلست على سريرها تجهش في البكاء حتى استيقظت ابنتها، وضعتها في حضنها وضمتها إلى صدرها لا تدري أي مستقبل سيكتبه القدر لهما.

في المساء عاد رائد، كانت نيفين تنتظره في الصالة، ألقى السلام ورمى بنفسه على الأريكة والاضطراب واضح على وجهه.

جهزت له طعام العشاء الذي لم يتناول منه شيئاً، ظل يعبث بالملعقة يحرك لقيمات الطعام التي في الصحن أمامه شارد الذهن، ونيفين ترنوه بعينيها تعلم ما يفكر به.

كسرت الصمت بصوتها قائلة:

-لماذا لا تتناول عشاءك.

لم يجبها واكتفى بهز كتفيه، تابعت سؤالها:

-ما بك يا رائد.

ضرب الملعقة التي في يده على الصحن فانكسر وصرخ قائلاً:

-لا شيء، املئي بطنك ولا عليكِ مني.

حاولت أن تتمالك نفسها وتحتوي غضبه وأن تواجهه بالأمر، قالت:

-لقد وجدت شيئاً في الحمام، لربما سقط من جيبيك.

جفل من كلامها ونظر إليها بذهول ثم سألها:

-ماذا وجدت، أين هو؟

نفض مسرعاً مبعداً الكرسي التي كان جالساً عليها فانقلبت ورائه، وتوجه إلى غرفة النوم هائجاً، لحقت به نيفين مسرعة لتهدئته.

ظل واقفاً وسط الغرفة وأخرجت له الكيس من الخزانة وما إن رآه حتى خطفه من يدها على عجل ووضعته في جيبه وكأنه يخفيه عنها، دار الغرفة قبل أن يجلس على السرير خائر القوى.

تقدمت نحوه زوجته وجلست بالقرب منه، تنتظر منه أن يتحدث من تلقاء نفسه، على الرغم من جموده وصلابته معها وصمته إلا أنها ترى فيه ضعفاً يخفيه بصراخه وغضبه وهو بحاجة لأن يحتويه أحد ويتفهم وضعه ويأخذ بيده، لكن كتامه وعدم وضوحه هو ما جعلها عاجزة عن فعل أي شيء، ولا تنسى تلك الليلة التي عاد فيها مخموراً واعترف بحبه الذي ما يزال يقيد قلبه ولا يستطيع نسيانه، وعساه اليوم ييوح بما يفعل، لأن تصرفاته تنم على قلقٍ شديد وبحاجة لأن يساعده أحد.

وضع رأسه بين كفيه دون أن يتفوه بأي كلمة، استغلت نيفين هدوءه وسألته:

-أخبرني يا رائد، هل أقلعت عن شرب الخمر وبتت مدمناً على هذه المواد؟

-لا يانيفين، هذه ليست لي.

- لمن إذن، ولماذا هي معك؟

وقف رائد وبدأ يتجول في أنحاء الغرفة، دون أن يجيبها وظلت صامته تسيل دموعها على خديها، تكتفم أسئلة كثيرة في داخلها بانتظاره أن يهدأ، عله يتكلم.

خرج إلى الصالة وجلس أمام التلفاز وفتح على قنوات الأخبار وكأنه ينتظر خبر ما، لحقت به زوجته وجلست بالقرب منه، ثم قالت له:

- أرجوك رائد لا تورط نفسك بشيء يضرك، من أجلي ومن أجل ابنتنا، نحن لا نستطيع العيش بدونك.

نظر إليها والدهشة ملء عينيه محاولاً فهم صدى كلماتها التي أحييت في داخله مشاعر لم يشعر بها من قبل، ثم اعتدل في جلسته ومسح بيده وجهه وشعره ثم قال لها:

- كنت أريد أن أكون نفسي وأستقل عن والدي، فهو دائماً يتحكم في المال الذي يعطيني إياه، أردت الاستقلال عنه بعمل ما.

- ألم تجد أفضل من هذه التجارة.

-تورطت وخسرت كل شيء، لقد نصبوا علي، أموالي ذهبت سدى، هذه المواد كلها مزورة ولقد رفض التاجر شراءها، لا بل قام بتلفها ونحن تورطنا وقمنا بشرائها وبعناها إياها ولم نكن نعلم حقيقتها.

-ماذا يعني أنها مزورة؟

-لا تسأليني، الأمر أكبر مني ومنك ومن عائلة الشامي.

أوجست من كلامه خيفة وتسارعت نبضات قلبها، وضعت يديها على صدرها وكأنما تخشى سقوط قلبها وهو بدوره أخرج علبة السجائر من جيبه وسحب منها سيجارة وأشعلها، عليها تهدئ نفسه ويتروى فيما سيفعله.

حاولت نيفين استجماع نفسها لتكون أكثر ثباتاً، علّها تتدارك الأمر وتحوي زوجها الذي يبدو جلياً بأنه ضائع.

ذهبت إلى المطبخ لتحضر القهوة وهو مازال أمام التلفاز يتابع نشرة الأخبار. عادت إليه بالقهوة وضعتها أمامه وجلست بالقرب منه تحاول أن تتودد إليه، وتقف بجانبه كي لا يشعر بأنه وحده، وفي قرارة نفسها كانت تريد أن تتغير علاقتها به لأجل ابنتها، لا تريدها أن تكبر وتعيش في بيت يقتله الصمت ويخلو من الحب والمودة، لا تريدها أن تراه يوماً في حالة سُكر أو تراه يضربها، تريد لحياتها أن تتغير فقد أتعبتها هذه الحرب الدائرة بين جموده وصمته وتصرفاته الطائشة.

وتريد لابنتها أن تكبر في حضن دافئ ولا تحرمها الحياة من حنان الأبوة، وعلّها تمسك بيده ولا تدعه يغرق أكثر في هذه التصرفات.

قطع صمتهم التلفاز حينما رفع رائد من صوته بواسطة (الريموت كونترول)، عندما ظهرت على الشاشة شاشة كبيرة عُثر بداخلها على كميات من المواد المخدرة شبيهة بالتي في جيبه، تم إخفاؤها بين صناديق الخضار، والمديعة تعلن بأنه ألقى القبض على السائق ورجل معه أثناء عبورها للحدود السورية اللبنانية. -لقد انتهينا.

قالها رائد وخبأ وجهه بين كفيه، ارتعشت نيفين خوفاً لكنها حاولت أن تكون أكثر جلادة.

اقتربت منه ووضعت يدها على كتفه، ثم سألته:

-وما علاقة هذه الشاحنة بك يا رائد، ألم تقل بأن المواد مزورة وأعادها التاجر.

-التاجر أعاد ما بعناه إياه وهي عينة مما تحويه هذه الشاحنة فقط، وأعتقد بأنه هو الذي كشف أمرها للجمارك.

-وهل لك علاقة بالشاحنة أيضاً؟.

صرخ في وجهها لتكف عن الاسئلة، ورمى بالقهوة أرضاً، بعدما أدرك نفسه وهو يتحدث:

-وكانه لا ينقصني غيرك، تتدخلين في كل شيء.

أخرج سيجارة ثانية وأشعلها، رن الهاتف.. فالتقطه على عجل، وضع السماعة على أذنه واستمع بتوجس لما يمليه عليه الطرف الآخر:

-حسناً...حسناً.

ثم أعاد السماعة ورمى بنفسه على الأريكة، كانت زوجته حينها تنظف الأرض من فئات الزجاج وبقايا القهوة وتكتم ناراً اشتعلت بقلبها.

مرت الأيام بعدها كسابقاتها، لكن رائد لم يعد يتغيب كثيراً عن البيت، ووراء صمته يخبئ الكثير من المخاوف.

عادةً حينما تقع مثل هذه الحوادث، تظل الأيدي الكبيرة في مأمن عن العقاب لتتكبل الأيدي الصغيرة وتساق إلى الحساب، ورائد لم يكن إلا متورطاً مع أحد أفراد عصابة مافيا في تجارة الممنوعات، ليكون هو وأمثاله كبش الفداء حينما يتم اكتشاف إحدى تجاراتهم المشبوهة.

وما كان يخشاه أكثر هو علم والده بالأمر، حينها سيتبرأ منه، لأنه لم يحدث في تاريخ عائلة الشامي الدمشقية أن يتورط أحد أبنائها بمثل هذه الأفعال، بغض النظر عما قام به والده حينما خسر والد نيفين تجارته لأن ذلك يعتبره شطارة لأن التجارة ربح وخسارة.

وفي تلك الأثناء حاولت نيفين أن تلتزم صمتها وسكونها، متجنباً أي اصطدام مع زوجها، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي تحركت فيه مشاعر الأبوة في قلبه، في ذلك الصباح حينما سمع ابنته سارة تنطق بحروف (ب..ا) وكأنما تقول بابا وتنادي عليه وهي تلعب في سريرها، نهض من سريرها واقترب منها ليتأملها وهي تغرد كعصفور ثم حملها لأول مرة منذ ولادتها، لترك قبلة على رأسها الصغير ثم أعادها إلى مكانها.

كانت نيفين ترقبهم والدموع تملأ عينيها غبطةً لما رآته.

الفصل الحادي عشر

الحب امتلاك

-أين أنت؟

-أقود السيارة في طريقي إلى العمل.

-انتبه لنفسك وأخبرني حين وصولك.

-حاضر حبيبي.

أنهيت الاتصال ذلك اليوم وانتظرتك، بتُّ أعدُّ الدقائق والثواني وأحسب لك الوقت الذي ستستغرقه لتصل إلى عملي، هاتفني بالقرب مني لا تغادره نظراتي.

الثامنة إلا خمس دقائق وبضع ثوان.

هذا الوقت الذي ينبغي أن يرن هاتفي فيه، لتخبرني بأنك وصلت وأتأكد من ذلك حينما أسمع صوت باب السيارة يُغلق وأنت تترجل منها، فأطمئن.

تأخر صوتك عني يومها نصف ساعة، اعتراني فيهن قلق يفوق يوماً بأكمله، عاودت الاتصال بك فلم أعد أطيق الانتظار.

-هل حدث مكروه ما معك؟

-لا حي أنا في العمل.

-لماذا لم تتصل بي وتطمئني عنك إذن.

-حقك علي، انشغلت مع مدير العمل.

شعرت بالخجل، أو ربما بالحماقة تعتريني، أغلقت الهاتف بعد أن أكدت لك بأن خوفي عليك وحي هما ما جعلاني أتصل بك.

اعتدتُ بأن تصلني رسالة منك كلما سنحت لك الفرصة لتخبرني فيها عن تحركاتك، حتى شعرتُ بأنك تسكن فيّ وأسكن فيك وأنتك من ممتلكاتي الخاصة.

قلت لي ذات مرة بأي المرأة الوحيدة التي اخترقت خصوصياتك وترقب تحركاتك، أو بالأحرى أنا المرأة الوحيدة التي سمحت لها بذلك.

-أتعلمين يا سارة، أمي رحمها الله لم تكن تتدخل بي كما تفعلين أنت، أهلي كلهم لم يكونوا يعلمون عني شيئاً، كنت غامضاً بالنسبة لهم، ولم يكن لأحد أن يتجرأ و يسألني عن تحركاتي، حتى أنني لم أكن أتخيل بأن تكون لي حبيبة أخبرها بمكاني لأني لم أفعل ذلك من قبل.

-هل تعني بأنك أحببت قبلي؟

-أتصدقين إذا قلت لك ؟

-أصدق.

-ربما مرّ في حياتي الكثير من النساء، ولا واحدة منهن استطاعت أن تشعل الحب داخلي كما فعلتِ أنتِ.

أنتِ حبي الحقيقي يا سارة، لم أحب امرأة قبلك ولن أحب من بعدك.

- وأنتِ حبي الوحيد يا ابراهيم، أنت الوحيد الذي استطاع كسر قيود قلبي، حتى أن لم أكن أوّمن بوجود شيء اسمه الحب، وكنت أرفض فكرة الارتباط بأحد أو الزواج.

-أما أنا كنت بحاجة لأن أجد حباً حقيقياً، قلبٌ يناسب ذوقي ، كنت أشعر بأن روحي بحاجة لروح تؤنسها، وكأنما كنت أبحث عنك حتى وجدتك، وكم تمنيت لو أنني التقيتك قبل سنوات ونحن في بلدنا.

-يا ليت حدث ذلك يا ابراهيم، لاختصرت عليّ سنوات من العذاب.

-أتعلمين يا سارة، أعتقد بأي أحببتك منذ سنوات، لأني كنت حينما أسمع باسمك ينتفض قلبي.

-لماذا لم تحاول أن تراني حينما كنا في بلدنا أو تبحث عني، لم يكن ذلك صعباً.

-لا أعلم، ربما الحرب، أو القدر الذي لم يأذن لنا أن نتقابل تلك الأيام.

-صحيح، فرقنا القدر منذ أن كنا صغاراً، لكنه ذات القدر الذي ساقني إلى بيتك أثناء الحرب.

-لم تحكي لي عن تلك الأيام بعد.

-ليس وقتها الآن، لا أريد أن أعكر صفو حديثنا بذكريات الحرب، ربما تقرأه بين دفتي كتاب سأحكي فيه عن كل ما مررت به.

-حسناً حبيبتي، أريد أن أستأذن منك الآن، أشعر بالتعب وداهمني النعاس ، نتحدث في الغد.

-حسناً، أحلام سعيدة.

-سارة... أحبك.

-وأنا أيضاً.

-أنت ماذا؟

-أحبك.

انتهى حديثنا حينها وأعدت قراءة كلماتنا عدة مرات، لم أستطع النوم، فقصدت دفترتي لأكتب.

لو تعلم كم كنت بحاجة إليك قبل سنوات، حيث لم يبق لنا أحد أنا وأمي سوى أنفسنا لنواجه قسوة الحرب وحدنا.

عندما لجأنا إلى بيت جد العائلة، البيت الذي كان يوماً يضمك بين جدرانها، وعشت فيه طفولتك، وحفرت فيه ذكرياتك، أصبح ملاذاً للاجئين وعابري السبيل حينما كانت الحرب قائمة في الشوارع وراجمات الصواريخ لا تهدأ عن ضرب الحارات والبيوت.

لم يكن أمامنا سوى أن نرافق العائلات أينما تذهب، فكان ملجأنا ذلك البيت بعدما أقمنا في عدة بيوت قبله، وكنا حينها قد نَجونا من الموت اختناقاً.

لم تكن البيوت التي حللت بها، تُشعري بالأمان كما شعرت به في بيتك، هل لأنه بيت جد والدي ووالدك؟، أم لأنك تركت أثراً فيه من روحك؟

ولأني من أحفاد صاحب البيت، تمت استضافتي في أفضل غرفة، وقد شعرت بإلفة غريبة فيها، الأثاث، الفخاريات، الكتب، السرير وحتى النافذة المطلّة على أرض الديار، وكل شيء كان مرتباً وكأنه لم يُهجر منذ مدة طويلة.

ولشدة تعبي يومها تركت لي أمي السرير وافترشت لنفسها مكاناً على الأرض، نمت ليلتها بين أحضان غطائك، ورأسي على وسادتك، وكأني لم أذق طعم النوم منذ أيام.

صورتك المعلقة على الجدار المقابل للسرير، كانت المحطة الأخيرة التي تقف فيها عيناى بعدما تنهي جولتها في أنحاء الغرفة، ولتكون آخر ما أرى قبل أن أغمضهما بعدما أكون قد ذرفت الكثير من الدموع لتمتصها وسادتك ومن ثم يسرقني النوم.

بتُّ أؤمن بالتقاء الأرواح وتآلفها بعدما التقيتُك، لأني أدركت الآن سبب تلك الطمأنينة التي سكنت قلبي والشيء الذي يشدني لأطيل النظر في عينيك المرسومتين في الصورة.

سألت عنك والدي التي لم تكن تعرف عنك الكثير سوى اسمك، لتخبرني إحدى النساء المقيمات في البيت عنك ببضع كلماتٍ قالتها:

-صاحب الغرفة شابٌ جاد وحريص، لا يجب لأحد أن يظأ غرفته أو أن يعبث بأشياءه ولم يكن مسموحٌ لنا أن نفتحها ونُدخل أحد عليها.

ابتسمت لكلامها لأني أشبهك في ذلك، أحب أشياءي ولا أحب لأحد أن يشاركني أو يعبث بها.

وأحببتك لتكون أئمن أشياءي، وحب امتلاكك بات أمراً حتمياً.

ساقني الفضول يوماً إلى متصفحك، لأنبش فيه ذكرياتك وأبحث في ماضيك، فوجدت لمسات نسائية من تعليقات وإعجاب وردك عليهن وبقيت هكذا حتى الصباح وأنا غارقة في شيء من ماضيك ليفسر عقلي على هواه حتى ألمني قلبي وتأججت نار الغيرة داخلي.

أعلم بأنه ليس لي الحق في أن أفتح أبواب ماضٍ لسئ فيه أو أن أغار من أي امرأة عرفتك قبلي، لكنها الأناينة في حبك جعلتني أحقد على كل امرأة وجدت اسمها في متصفحك مهما كانت صفتها صديقة كانت أم حبيبة.

جنوبي هذا قادي لأشك بأني لست الوحيدة في حياتك، وإن إحداهن لربما شاركتني وقتك، لذلك بدأت بملاحقتك أكثر فأكثر، حتى ضقت بي ذرعاً.

لا أنكر بأني كنت أحنقك في أسئلي حينما تأتي إلي متلهفاً لأصدك بعتابي ولومي، لكنني في قرارة نفسي كنت أنتظر منك أن تطمئنني أكثر وتُسكت نحيب قلبي.

قلت لي ذات مرة:

-أرجوك، لا تعامليني بهذه الطريقة، آتيك مشتاقاً، تتهجمين علي بعتابك ولومك، فتعكرين مزاجي.
-أعتذر.

-لا أقول ذلك لتعتذري، تعلّمي ألا تعتذري لأحد مهما كان.

-لكنك لست أي أحد، أنت روعي يا ابراهيم.

- وأنت روعي يا سارة، قدري ظروف ووقتي، نحن الآن في نهاية السنة والعمل يزداد، لا أستطيع أن أقصر بعلمي أو أن يرى المدير أنني مشغول طوال الوقت على الهاتف وخصوصاً أنه أوكل إلي مهمة جديدة.

-سأدعو الله كثيراً.

-من أجل ماذا؟

-من أجل أن يصبرني على غيابك.

-ومن قال لك سأغيب، اسمعيني حبيبي، نحن نحب بعضاً أليس كذلك؟

-بالطبع.

-الحب لا يعني أن نبقى على تواصل دائم، لدي أعمالي ولديك مشاغلك، يبدو أنه يجب عليك أن تجدي عملاً إضافياً يُشغلك عني.

شعرت بالغضب من كلامك فكُتبت لك:

-من قال لك بأني متفرغة، أنت لا تفهمني، أنت تسكن فيّ ولا أستطيع أن يمر يومي دون أن أتحدث معك، بتّ جزءاً مني يا ابراهيم.

ليتك كنت تفهمني، وتقدر لي هذه المشاعر التي لا سلطة لي عليها، ليتك كنت تعلم بأني أراك وطناً وأوييني وإني أغار على وطني من أي مغتصب، ليتك تعي بأني لم أغادر وطني إلا حينما شعرت بأن وجودي فيه بات خطراً عليّ، ليس خوفاً من الموت بل من أجل كرامتي، فلا تجعلني أغادرك وأهجرك وأغدو لاجئة على عتبات حبك.

قيل يوماً لا توجد بدايات حقيقية بل نهايات مستمرة، وأنا لم أعد أعلم متى كانت بدايتنا، هل حينما كنت عابرة سرير في غرفتك، أم حينما التقيتك في المكتبة، أم عندما تركت لي فيها رسالة، أم كانت بدايتنا في سجل الشعر أم حينما قلت لي أحبك.

وما زلت إلى الآن لا أعلم إن كنا في البداية أم نخطينا مراحل في الحب، أم قاربنا على مشارف النهاية، أم نحن الآن في أحد فصول الحب بين الغيرة والحيرة والبعد والقرب.

أكره حدسي لأنه يُشعرنني دائماً بالكارثة قبل وقوعها، وكأنما تنبأْتُ بما تحبّه لي الأيام وبما ستفعله بي، كنت دائماً أوّمن بمقولة (قلب المؤمن دليله) حتى آمنت بأن قلب العاشق دليله.

وكانه حينما نُهدي خوفاً من شيء نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام ما نخاف، وكأنه نداء خفي يجعل ما نخافه يأتي بسرعة البرق، وحدث ما خشيته؛ في ذلك الصباح حينما استيقظت فتحت هاتفي على حين لهفة، فلم أجد -صباح الخير- منك كما كنت ترسل لي كل يوم، انتظرت في سريرتي وأنا أنظر إلى هاتفي، قلت ربما ما زلت نائماً -أضع لك الأعذار دوماً كعادتي- فتحت متصفحني على (الفييس بوك) لأرى الضوء الأخضر بجانب اسمك، سقط قلبي في هاوية الشك ولم أستطع انتشاله، وضعت في متاهة الأسئلة، حتى كتبت أصابعي التي ترددت أن ترسل لك ثم محوت ما كتبت ورميت بهاتفي جانباً.

« أنت لي ولن أسمع لامرأة غيري أن تسكن قلبك، أنت لي وخلقت لي ولا أريد أن أسمع باسم امرأة غيري في حياتك»

لماذا أهملتني ذاك الصباح ولم ترسل لي والشك يساورني بأنك تعمدت تجاهلي لتعاقبني على ملاحقتك.

حتى جاءتني حروفك بعد ساعة من الاحتراق والانتظار:

- أين أنت؟

- في العمل.

- لماذا لم ترسل لي صباحاً؟

- كنت مشغولاً.

- مشغول؟، رأيتك قد فتحت متصفحك.

- وهل تعتقدن بأني أستيقظ صباحاً فقط للحب؟

تجمدت من كلامك وكأنك صفعت قلبي بسوطٍ من نار، لتجلده على الحب الذي يكبر فيه وبات يعذبه، فلم أجد نفسي إلا وأنا أتشكرك على هذه الصفحة:

- شكراً لك، لقد عرفت مدى حبك لي وقيمتي عندك، ليتني مت قبل أن أسمع منك هذا الكلام، كلمة منك ترفعي عالياً إلى السماء وكلمة تهوي بي إلى الجحيم.

- سارة ما بك ، ماذا يحدث معك، منذ أيام وأنت لستِ طبيعية؟

- اسأل نفسك.

بقيت صامتاً ولم تعد ترد وأنا اشتعل غضبي أكثر، وبدأت أجهش في البكاء، كان قلبي يبكي بنحيب حارق، وكلماتك أضمرت النار في روحي، كتبت لك ودموعي كالأنهار تسيل على خدي:

- أعتذر إليك على ما بدر مني وأعدك ألا أزعجك بعد اليوم.

كتبت لي:

- لا عليك، انتبهني لنفسك.

وكانت تلك آخر كلمات منك قبل اختفائك.

الفصل الثاني عشر:

يتأجج الحب على مشارف الموت

حروفٌ أشبه بكلمة بابا تخرج من ثغر رضية في مهدها، تغرد بها لثُحرك مشاعر الأبوة في قلب رائد،
وبقبلة تركها على جبينها، أحييت السعادة في قلب نيفين. علّه يرأف بتلك الطفلة وتتغير طباعه، وتنمو أواصر
المحبة في البيت.

لعلّ الحب الذي قرأت عنه يوماً، أن تلمسه واقعاً في بيتها مع زوجها، لتؤمن بأن الحب حقيقة لا خيالاً
يرسمه الكاتب على الورق.

غادر رائد المنزل صباحاً بعد تناوله فطوره، وهي بدأت تجول في أرجاء البيت لتترك فيه من روحها ولمساتها
الجميلة، ثم دخلت إلى المطبخ لتعد أطباق الحلوة وأصناف الطعام.

-لقد مللت من الجمود، ربما أنا المقصورة في حقه، ولا أوفر له الجو المناسب، ستكون الليلة مختلفة، سأفعل
ما بوسعي لأغيره من أجل ابنتنا.

التمست نيفين تغيراً واضحاً في سلوك رائد، مذ أن ولدت ابنتها، بات يترك لها باب البيت مفتوحاً، لم يعد
يغلق عليها بالأقفال كما كان يفعل مسبقاً، والهاتف يعمل و تزورها الجارات والصدقات بين حينٍ وآخر.
مذ أن أدرك بأنه تورط في تجارة خاسرة، تجارة محرمة مُهلكة، بات يلزم البيت كل ليلة وإن لم يهجر صمته،
إلا أن مزاجه بات أقل حدة وعصبية.

يُقال بأن النساء الصالحات يُغيرن الرجال، لكن إن كان في قلب الرجل بذرة صالحة، فالأرض البور لا
تنبت من تلقاء نفسها وإن أسقيتها بحاراً، وعسى ثمار صبرها قد أينعت وحن قطافها.

بات البيت في أحلى حلّة وهي في أبهى زينتها، تقف أمام مرآتها لتضع الكحل في عينها، وتزين شعرها
بشريطة حمراء على لون فستانها.

لعلّ السعادة التي غابت طويلاً، تعمّ في حنايا البيت، حلم كل امرأة الاستقرار وحياة هانئة هادئة، خالية
من أي شيء يعكر صفوها، زوج محبّ، متسامح، يفهم المرأة ويرأف بمشاشة قلبها.

حلّ المساء وقلب نيفين ينبض شوقاً لأن تعيش ليلة مختلفة، لتجلس مع زوجها على مائدة الصراحة بقلوبٍ مفتوحة، لا صمت، لا كتمان، لا غضب.

صوت مفاتيح الباب يكسر صمت البيت لتستعد نيفين للقاء زوجها.

دخل رائد بخطوات هادئة على غير عادته، ليرى زوجته كما رآها ليلة الزواج بكامل أناقتها وزينتها، المائدة مزينة بأصناف الطعام.

استقبلته بابتسامة وتقدمت نحوه، ألقى السلام وهو يخلع جاكيتته فسارعت لأن تساعد وتأخذه عنه، قال باستغراب:

-هل سيأتينا ضيوف الليلة؟

-لا، أقصد نعم.

-من؟

-أنت.

دُهِش لما سمعه منها وبدأ يتأملها تارة وينظر إلى المائدة تارة أخرى وإلى الشموع المضاء التي زينت بها نيفين الطاولة .

-اجلس. قالتها نيفين وهي تزيح كرسيّاً لتتيح لرائد الجلوس عليه، ثم جلست قبالته وهو تعتربه الدهشة والاستغراب ثم قال ضاحكاً:

-أشعر بأني سأموت.

-ما هذا الكلام يارائد ، أطال الله بعمرِكَ.

-ما هذا الاستقبال إذن، لست معتاداً على هذا الأمر.

أجابته وفي صوتها شيء من الدلال:

-هل كنت تقصد بأني لم أكن أستقبلك بشكل جيد، كم مرة جئت ولم تجد المائدة جاهزة.

بدأ بتناول الطعام من أول صحن أمامه، فلم يعد يصبر أمام إغراء الأطباق.

-أوهه، لذيذ جداً ، أكمل مضغ اللقمة ثم أردف:

-لكن ليس بهذا الشكل، ألا تسمعين بالمثل الذي يقول (الفاكهة بالنظر).

-صدقت ، وأخذت تزبح بخصلات شعرها الذهبية عن وجهها، وكأنها تريد أن تلفت نظره إليها أيضاً، ثم

أدركت مدى انشغاله في الطعام، فقالت في نفسها:

-دعيه ينهي طعامه الآن، لن يراك إن لم يملأ معدته. ثم ابتسمت.

بدأت ترقبه ويده تنتقل بين طبق وآخر، وتملاً قلبها الغبطة لرؤيته يأكل بشهية وبعد دقائق نظر إليها،

وجدها لم تلمس شيئاً من طعامها، فسألها:

-ما بك، لما لا تأكلين؟

-سأكل، لكن لا أريد أن أحرم عيني من رؤيتك وأنت سعيد هكذا.

ابتسم وهو يحرك اللقمة في فمه ثم أمسك كأس العصير وعبّه دفعة واحدة .

-والله إن كيدك عظيم.

-لماذا؟

-لا أعلم، لست مطمئناً لهذا اليوم، ليس من عادتك، ربما تريدن شيئاً أو فعلتِ شيء.

-لا هذا ولا ذاك، أحببت أن أحتفل بزوجي فقط.

نظر إليها وقد توقف فمه عن الحركة، ثم ابتسم وتابع ابتلاع اللقمة وقال:

-حسناً شيء جميل، لكن أريد أن أخبرك بأن مزاج زوجك ليس جيداً هذه الأيام.

-لكني أرى زوجي هذه الأيام مختلفاً عن ذي قبل.

-تعبت يا نيفين تعبت.

- ما بك يا رائد، ما الذي يُتعبك، أنا لم أصدق بأنك امتنعت عن السهر والشرب وملتزم مع عمي بالعمل، وما هو قد رفع لك معاشك.

تناول منديلاً ومسح فمه ويديه، وقام متوجهاً إلى الصلاة وجلس على الأريكة، لحقت به زوجته وجلست بالقرب منه ثم أمسكت بيده

- أرجوك أخبرني بكل ما يتعبك، لا تُخبي عني شيئاً، حتى إن كان ما يزعجك مني أخبرني به، علني أُغيّر من نفسي، لقد تعبت يا رائد، وأتعبني العراك وكأننا لسنا زوجين، الأيام تمضي بنا سريعاً وأصبح لدينا ابنة وستكبر ونحن لم نتفق يوماً، سئمت من برودة هذا البيت الخالي من الحب والتفاهم.

- وما الذي جعلك تصبرين كل هذا الوقت.؟

سالت دمعة من عينها، مسحتها بسرعة وحاولت أن تتمالك نفسها كي لا تبكي، ثم أجابت:

- ليس صبراً بقدر ما هو أملاً في أن تتغير علاقتنا.

سحب يده من بين يديها وأخرج علبة السجائر من جيبه، سحب منها واحدة، أشعلها ورمى بالعلبة على الطاولة ثم قال وهو ينفث الدخان من فمه:

- أعتقدين بأن هناك خللٌ ما في علاقتنا؟

جمعت شعرها ولفته ورفعته فوق رأسها وهي تجيب:

- لم أشعر بأن قلبك معلقٌ بي وكأنك أُجبرت على الزواج مني، مع أنني أنا التي أُجبرت على الزواج وتركت المدرسة لكي بعدها رضيتُ بك وأحبب... .

نظر إليها وهو يهز برأسه محاولاً استنطاقها:

- أكلمي، أكلمي.. لماذا ابتلعتِ آخر كلمة؟

- أحبيبتك، أحبيبتك يا رائد، على الرغم من قسوتك معي واهمالك، وجفائك وصمتك القاتل، إلا أنني اعتدتك.

نفث دخان سيجارته ورمى بعقبها في المنفضة ثم أخرج سيجارة ثانية وأشعلها وهو يقول:

- كنت أعتقد بأنك تحقدين عليّ.

-لم أحقد عليك أبداً، لأني التمسيت فيك طيبةً خفية، وقلبك الذي أحبّ يوماً كنت أرتجي لي منه حباً. كان يطيل النظر إليها وهي تتحدث ودخان سيجارته يحول بينهما، أطفأ السيجارة التي لم يكملها ورمها في المنفضة وقال لها:

-لقد غلبتني يا نيفين، صبرك عليّ كان يهزأ مني، كنت أنتظر أن تنتفضي غضباً، أن ترفضني ما أفعله بك، أن تصرخي في وجهي وتقولي كفى، كنت أقفل الباب عليك وأقطع خط الهاتف ليس لأني لا أثق بك، لكنني كنت أخشى أن أعود يوماً ولا أجذك، أخاف أن تتركيني.

شهقت ودموعها تسيل على خديها ثم ارتمت في حضنه وأفلت شعرها وتناثر على كتفيها، ضمها إليه وهو يمسح على شعرها، وتركها تجهش في البكاء على صدره.

بكاء الصغيرة قطع على نيفين بكاءها، رفعت رأسها ومسحت دموعها بكلتا يديها .

-هيا أحضريها، أريد أن أراها وأرى ملامحها الجميلة، ربما تشبهك.

ابتسمت نيفين وهي تعيد ترتيب بعثرة شعرها متوجهة إلى غرفة النوم، قائلة:

-لا بل تُشبهك أنت، لديها ذات العينين باتساعهما ولون البن فيهما.

ضحك رائد لكلامها وحينما جاءت بالطفلة حملها بين يديه متأملاً وجهها، ثم ترك قبلة على خدها وأمها تملأ قلبها السعادة وكأنها مُنحت كنوز الدنيا.

صوت جرس الباب قطع خلوتهم وهو يرن بوتيرة ملّحة، وكأن الطارق على عجل، قام رائد ليفتح الباب ولحقت به نيفين وبين ذراعيها صغيرتها.

-عسى خيراً، من سيزورنا في هذه الساعة. تمتت نيفين.

وخلف الباب ظهرت جارتم صفية تنتحب، احتضنت نيفين وهي تجهش في البكاء، ورائد ينظر إليها بذهول.

-تفضلي خالة، ما خطبك؟ خيرٌ إن شاء الله. قالها رائد وأغلق الباب وولجوا جميعاً إلى الداخل.

-ومن أين يأتي الخير، أحمد ابني، أخذوه.

طالت الحملة الأمنية أحمد، الشاب الذي اعتاد أن يرتاد المسجد في كل وقت ويقوم بحلقات ذكر للشبان الصغار، ولأن والده قد غيبه الظلام منذ عشر سنوات بتهمة انتمائه للجماعات الإسلامية، ظلت التهمة تحوم حول عائلته وأبنائه، مما اضطر كثير من العائلات في تلك السنوات مغادرة الوطن تجنباً لمثل ما حدث مع أحمد على الرغم من عدم انتمائه لأي حزب أو حركة ولكن اللعنة إن حلت لا تزول.

-لا حول ولا قوة إلا بالله.

-أرجوك يا ولدي افعل شيء لأجل ابني، عائلتكم لها كلمة مسموعة.

-والله يا خالتي سأحاول ما بوسعي، وسأخبر والدي علّه يتكلم مع أحد أصدقائه (يده طائلة) تفاءلي خيراً إن شاء الله.

ومن سيستمع لهم إن كان الأمر بيد أصحاب الكلمة أو من سيتجرأ أن يتحدث لأجله، كي لا يقع في خانة الاتهام ويخسر كرسيه ومكانته.

عادت أم أحمد إلى بيتها، وفي قلبها نار مشتعلة على ابنها وبعضاً من الطمأنينة زرعتها رائد في نفسها. جاء الصباح بإشراق مختلفة هذه المرة، بجمالٍ لم تعهده نيفين من قبل، وتفاؤل بأن الدنيا ضحكت لها وأخيراً.

قامت بجولتها المعتادة في البيت من تنظيف وترتيب ثم جلست أمام التلفاز تنتقل بين قنواته، حتى وقفت عند خبر عاجل يقول بأن حادث سير وقع فوق جسر الرئيس وسط دمشق بسبب فقدان السائق سيطرته على السيارة مما أدى إلى ارتطامها بشاحنة كبيرة فقد على إثرها حياته.

انقبض قلب نيفين من هذا الخبر، على الرغم من أنه ليس جديداً عليها لطالما وقعت الحوادث، لكنه اليوم قد وقع في نفسها بشكل مخيف.

زادت من رعبها رنات الهاتف الذي التقطته بتردد وما إن وضعت السماعة على أذنها حتى جاءها الخبر كالصاعقة.

توفي رائد بحادث سير وهو في طريقه إلى العمل، بعدما فقد سيطرته على السيارة أثناء محاولته الابتعاد عن شاحنة ظهرت أمامه فجأة، والسبب كما أقرت الشرطة بأن الفرامل كانت معطلة.

قضاء وقدر أو فعل فاعل في كلا الحالتين تموت القضية في أرضها إن اختفت الأدلة.

احتضنت الخالة صفية نيفين بعدما سمعت بالخبر وجاءت على عجل، لتحاول أن تُهدئ من روعها وتقف بجانبها، وتشاركها البكاء على ابنها الذي تأملت أن يساعدها رائد في إخلاء سبيله وعلى الآخر الذي خطفه الموت غفلة.

وكان القدر قد لعب لعبته في ذلك اليوم، لتعيش الامراتان مأساتهما بعدما منحت الحياة نيفين سعادةً ليوم واحد لم يكتمل.

الفصل الثالث عشر:

نيران المهجر

«لا أستيقظ صباحاً فقط للحب»

ما زالت كلماتك تطن في رأسي كناقوس الخطر، وربما أصبت، فنحن لا نستيقظ صباحاً فقط للحب إن كانت حياتنا تخلو ممن نحب.

كانت صباحاتي قبلك اعتيادية روتينية، والصبح في بلدي كان استبشاراً بحياة جديدة بعد انقضاء ليل طويل مرعب وانتظار خفايا القدر، ربما كنا نستيقظ في مكان لننام في آخر، حتى بتنا نصحو في بلدنا ليحل علينا الليل في الغربة.

لا بأس، عليّ أعود لأعيش صباحاتي التي اعتدتها دون أن أقيدها بك وفي انتظارك.

حاولت أن أتجاهل هاتفي وأرتشف قهوتي على الشرفة، أو أن أمارس بعض التمارين الرياضية كما اعتدت مسبقاً، لكني لم أقم ذاك الصباح بأي شيء سوى انتظارك.

لم يرن هاتفي باسمك ولم تردني أي رسالة منك، ترددت في الاتصال بك، حتى لم أعد أُطبق الانتظار أكثر، أرسلت لك رسالة طلبت منك فيها أن نلتقي في المقهى، أردت أن أبرر لك سبب غضبي، و أن أراك لنتقي وجهاً لوجه، لأن أحاديثنا على الانترنت بكلمات صامتة لا تصل المشاعر فيها بشكل صحيح، فتضيع حروفنا بين مفهوم لم يُقصد ومقصود لم يُفهم، ولأن نظرة في عينيك كانت تكفي عن الكثير من الكلام.

جاءني ردك بأنك متعب وتشعر بالصداع وبأنك في إجازة لتتاح .

آثرت يومها البقاء في سريري وتغييت عن العمل، عقلي مشوش وخاطري مكسور، كنت بانتظار كلمة منك تصالحني فيها، لأنسى ما قلته لي.

عاودت الاتصال بك لكنك لم تجب، رميت بهاتفي وأنا ألعن قلبي كي يكف عن مطاردتك، قلت في نفسي: اتركه الآن، مزاجه ليس جيداً، دعيه يراجع نفسه وسيكلمك، لن يتحمل الغياب طويلاً.

كان ذلك ظني في حبك، ونسيت أن بعض الظن يخيب، وثقتي بأن لا يطول غيابك، لكن ما أربني حينما تذكرت بأنك أخبرتني عن تقلب مزاجك وخوفك عليّ منه، وبطبعك الحاد الذي يجعلك تبتعد عن كل ما يزعجك فترة من الزمن، ولم أعتقد أن تطبق عليّ هذا الأمر يوماً.

قلت: أنا التي ينبغي لها أن تأخذ منه موقف، أنا لم أزعجه، هو الذي جرحني بكلامه.

شاردة بك طوال الوقت، وأمي التي اعتقدت بأني مريضة، ما دأبت عن صنع الشاي مع الأعشاب والأطعمة لي، وأنا كنت أرفض تناول أي شيء، إلا أن أخرج مرّ القهوة لتنسيني مرارة أيامي دونك.

اليوم الأول لغيابك، كان أشبه بذلك اليوم الذي جلسنا فيه تحت رحمة الصواريخ، ننتظر إما موتاً أو نجاةً وكنت أنا أنتظر إما أن تميتني أكثر أو أن تعيد لنبضي الحياة باتصالك.

غيابك يا ابراهيم كان مرعباً، بقدر ما أربني ذات مرة غيابي عن أمي، حينما علقت وأنا في مهمة مع بعض الأصدقاء في حي جوهر الدمشقي، وتركتُ أمي في بيتٍ في حارة أخرى، خشيت أن أموت يا ابراهيم ولا يحظى جسدي بلمسات أمي ووداعها لي قبل دفني في التراب، كما كان يحدث للكثيرين في تلك الأيام.

وأنا خشيت أن تغادرنني ولا أحظى بوداعك لي.

قد صحوت تلك الأيام لأصدق كل كلمة قلتها لي عن طباعك، وما اعتقدت يوماً أن تطبق أحكامك وقوانينك عليّ كما كنت تطبقها على الآخرين.

لستُ كالآخرين يا ابراهيم، ألمني أنك وضعتني في ذات الكفة التي تكيل بها البشر، أنا مختلفة كما كنت تخبرني، أنا روحك، فكيف للروح أن تتخلي عن روحها أو تعاقبها؟

أم أنك كنت تعاقب نفسك؟

قلت لي ذات مرة بأنك تضرب عينك إن آلمت، ولم أصدق أو أعي ما تعنيه حتى آلمتُك فألمتني ببُعدك. مضى الأسبوع الأول وكبريائي في القمة، امتنعت عن الاتصال بك، أذهب إلى عملي، لكن عقلي عندك، كنت أنتظر أن أراك أمامي قد عدت لأجلي، لكنك لم تعد وكنت أتعمد الجلوس في المقهى بين حين وآخر عليّ أرى طيفك ولكن عبثاً.

حينها أصابني القلق وخشيت أن يكون قد حلَّ مكروه ما بك، أو أنك مريض ولم تخبرني، لعنت نفسي على ظنوني السيئة، أمسكت الهاتف وبدأت أهيل عليك باتصالاتي ورسائلي ولكنك لم تجب، وما أفجعني بأنك كنت تستلم الرسائل وتقرأها ولا ترد، حينها أدركت بأنك اتخذت قرارك في التخلي عني على الرغم من وعودك الكثيرة لي بأنك لن تغادرني أبداً.

«لم يكن الغصن هزياً، بل كانت الرياح لا تحتمل»

بعد عشرة أيام على اختفائك، فتحت حاسوبي مساءً، فظهرت لي هذه العبارة على جدار متصفحك، لا أستطيع وصف الشعور الذي داهمني تلك اللحظة، حاولت ألا أفهم قصدك...

لكن كيف للرياح ألا تحتمل غصناً غضاً يا ابراهيم، وكيف لرياح هجرك أن تفعل بداخلي كل هذا الخراب، وقد فعلت بي ما لم تفعله حربٌ برمتها في مدينتي دمشق.

حربٌ شعواء أضرمت نارها في نفسي بين أن أصدق أو لا أصدق.

لازمت فراشي وقد أتعبني المرض، حريقٌ في جوفي بثُّ أشعر به يلتهم معدتي، فما عدتُ أقوى على الذهاب لعملي وما عادت لي القدرة على أن أحتمل ألم فراقك، (فراقك) الكلمة التي رفضت الاقتناع بها أو تصديقها وما يسليني كلماتك التي ما دأبت عن تذكرها ليطمئن قلبي، أتعلم يا ابراهيم ثقتي فيك كانت كثقة طفل بأمه، تصفعه حينما يُخطئ ثم يرتقي في حضنها وتحتويه بحنانها.

وكنت أنتظر أن أرتقي في حضن قلبك وأشتكي إليك ألم تلك الأيام التي عشتها في انتظارك.

لربما تعمدت ألا أفهم ما تعنيه تلك الجملة، لأني لو فهمتها لنفدت قرارك واختفيت من حياتك ولن أترك لك حينها أي نافذة تطل بها على أخباري، كما تركت لي نوافذ إليك أرقب تواجدك على الإنترنت وأطمئن وأحترق في ذات الوقت.

أردت ألا أفهم يا عزيزي لأني في طبعي أبالغ في كل شيء.

بالغت في حبك وبالغت في غيرتي عليك، وأبالغ في صبري وسأكون أكثر مبالغة في هجري لك.

إلا أنني ما زلت على مشارف الصبر أتجرع من بصره، وبحر الصبر عندي وإن كان أجاجاً لا أتوانى عن مقارعة كأسه لأجلك.

أتعلم يا ابراهيم بأن الشعور الذي تركته في نفسي يفوق ذلك الذي كنت أشعره حينما غادرت بيت طفولتي
وذكرياتي، وربما يفوق حزني حينما غادرت وطني، وأنا التي اتخذت قلبك وطناً لي في غربتي، وكأنما شابه
قلبك سورية حينما نفتنا عن أرضها وقتلتنا بيدها.

وربما حان الوقت لدفع ضريبة حبك، لأغرق في بحر العذاب بقدر ما أبحرت في محيط عشقك.

كيف تملك تلك الصلابة والجلادة على الابتعاد عني، وأنت الذي كنت تخبرني بأنك عثرت على النصف
الذي يكملك، فكيف لك أن تعيش دون جزء منك، وأنا التي شعرت بأني أعيش بلا أجزاء، مبتورة
الأوصال، لا قدرة لي على العيش بدونك.

مرّت الأيام يا ابراهيم وكل يوم كان يجلدني أكثر من سابقه، لأستعيد ذكرياتي معك، في كل صباحٍ عشته
مع صوتك وكلماتك.

وبتُ ألمم شظايا قلبي المكسور بذكرى صوتك الذي بقي عالقاً في المكان لا يغادري، وطيفك كان أوفى
منك حضوراً وأحلامي شاهدة.

بتُ أعدُّ الأيام في غيابك يوماً بعد يوم حتى بلّغت الستين، فكنت كأمٍ تنتظر ابنها الذي استشهد منذ
أعوام، حينما غيبته السجون، لكنها لم تصدق خبر استشهاده لأنها لم ترحبته، ليس رفضاً ولكن لتكرم مثواه
بقبرٍ تزوره كلما اشتاقت إليه.

بعد ذلك اتخذتُ قراراً أن أنهي كتابي الذي بدأتُه حينما قابلتك وكتبت فيه فصلاً عن حياتنا وعنك، لأن
حيي لك يعادل كل سنوات عمري وما عشته كان سراً قبلك.

وكنت أكتب لك رسائل طويلة أدها بين كتبي، رسائل أكتب لك فيها ما لم أستطع قوله لك، وما وددت
أن أخبرك به، وما رغبت أن أسالك فيها عن سبب ابتعادك وهجرك.

أردت فقط أن تكلمني لآخر مرة إن اتخذت قرارك، لأراك وأشبع عيني منك وأمتع حواسي برائحة عطرك،
لأعرف ذنبي معك، الذنب الذي يستحق منك كل هذا الهجر، حينها سأعتذر إليك كثيراً وأقول أحبك،
أحبك، ثم أختفي من أمامك.

لكنك لم تتحدث معي ولم أرَ حروفك، وكنت أشعر بسكينة غريبة، بأن الوداع لم يحدث، ولن يحدث، وحينها أتذكر كل منزلٍ حللنا به زمنًا حتى اعتدنا جدرانته ثم غادرناه دون أن نحظى بنظرة أخيرة عليه أو أن نأخذ منه شيئاً من ذكرياتنا، في أمل العودة إليه قريباً، فيكون الرحيل أخف وطأة على قلوبنا، كنا نحمل ذاكرتنا معنا وصوراً طبعناها في مخيلتنا، ذاكرتنا الوحيدة التي لا يستطيع أي معتدٍ أن يسلبنا إياها، لكنه يستطيع أن يشوهها بجرائمه، فتظل تبكي زمنًا حتى تتعافى من تلقاء نفسها، فهل كنت لتترك أثراً عميقاً في نفسي؟ لكن جرح الروح يا عزيزي لا يبرأ ولا يزول.

كنت كلما اختنقت، أنفَس الكُتب، لتمنحي شيئاً من الأمل المدفون بين سطورها، وكنت أختار الروايات لأبحث عنك كبطلٍ اسطوري وأرى ما يمكن أن تفعله وكل نهاية حزينة تعيدني إلى أساساتي وكل لقاء يرسم في مخيلتي حلماً بلقائك.

كان ديسمبر قد حل، وكنت قد قرأت يوماً بأن في ديسمبر تنتهي كل الأحلام، ومقولة أخرى تقول بأن كل غائب سيعود في ديسمبر فما عدت أعلم أيّ المقولتين أصدق.

وكان البرد قد أصاب قلبي قبل جسدي، وثلج هجرك قد أحالي إلى كتلة صمت، آلة للكتابة فقط والتفكير، وأمي ضاقت بي ذرعاً، فعزيت ذلك بسبب ما روته لي عن وفاة أبي وطفولتي التي عشتها وما أكتبه من ذكريات الحرب، لكنها لم تصدق بأن أكون بهذا الحزن وأنا التي عاركت الحياة مبكراً وكنت أبتسم في أحلك الظروف.

كيف لهجرك أن يفعل بي كل هذا يا ابراهيم، أما آن لك أن ترأف بي وبقلبي الذي منحه لك دون شروط، لطالما دار هذا السؤال في نفسي وانتظرت منك الرأفة، حتى اعتقدت بأن الرأفة ذاتها لن ترأف بي، ولم أياس من انتظارك.

كانت صديقتي لورين تحاول جاهدةً أن تُخرجني من حزني ومن صمتي، وتحاول أن تمنحني القوة في حديثها عن تجربتها في الحب، وكانت تهيل عليّ بالنصائح التي كنت أصم أذني عنها ولا أتقبلها البتة. نسفت كل المقولات التي تتحدث عن التخلي عن ابعد وهجر، ومن ابتداءً بالغياب أكرمه بالهجران، لكنني كنت أو من بشرية حبك التي آمنت بها حد اليقين بأنك عائد لي وإن طال غيابك.

أيام العام كانت قد شارفت على الأفول وكلّي أمل بأن يكون العام الجديد ممتلئاً بحضورك، وكان أملّي في محله حينما باغتتني رسالتك التي وصلتني في ليلة رأس السنة تتمنى لي فيها أن أكون بخير، رد قلبي بنبضاته (اشتقتك) وأصابعي كتبت لك (وأنت بخير شكراً)، وبعدها أقام قلبي عرساً واحتفالاً بالحروف التي جاءتني منك و إن بَحُلَّتْ بعددها يكفيني أن أناملك كتبتها ويكفيني أنك ذكرتني.
(يكفيني بأنك ذكرتني).

يكفيني بأني مررت بخاطرك كغيمة منسية داعبتها نسائم الهوى فأمطرت ، فروت زهور قلبك العطشى بالحنين.

يكفيني بأنك كتبت لي ...

حروفاً أحسبها ريحاناً تفوح في الأرجاء بعطور الياسمين.

فلثمت نبض قلبي المتهالك وأنعشته فعادت الطيور تحلق في سماء روحي ويصمت الأنين.

يكفيني بأني كنت في حروفك عمراً لك تصفني، فيهتز عرش الكبرياء ويشفق الوتين.

خانتني الحروف فلم أعد أرى ما كان سحرٌ في الكلام يغيبي عن الإدراك فهرب من حنجرتي الكلام وأفلتت من بين أصابعي أشواق ما استطعت رسمها أمامي فحلقت كفراشات تطلق الأمل السجين

يكفيني أني مررت بخاطرك كفكرة شاعر أستباح الحرف ليسطر المجد في حروف القصيد وتتناقلها السنون.

يكفيني أنك ذكرتني ولو همساً، تدركه روحي لأنها فيك تسكن وتستكين...

كتبت هذه الكلمات على مفكرتي وقلبي ينبض فرحاً وانتظرت رسالة جديدة منك عسى أن تعود أنهار حبنا لتصب في محيط الود ونلتقي.

الفصل الرابع عشر:

لن أترك ابنتي

اجتمعت النساء في بيت أبي رائد للعزاء، تكنسيهنّ حلة سوداء، ونيفين تتوسطتهن، غائب ذهنها في كل أيامها التي عاشتها مع رائد، ودموع عينيها قد تجمدت، ونخب قلبها يعانق السماء.

سنتان عاشتهما مع زوجها، لم ترَ فيهما سعادة سوى ذلك اليوم الذي ولدت فيه ابنتها وغدت أمًا، وآخر ليلة عاشتها معه على مائدة الصراحة، حينما اعتقدت بأن حياتها ستتغير، وستعيش حياة هادئة، وبأن طباعه الحادة تغيرت وبذرة الخير في قلبه قد نبتت وكبرت.

ما الذي حدث؟ هل كان القدر يقف في وجه أحلامها؟ أم أن أيادٍ خفية لعبت لعبتها وأودت برائد إلى طريق الهلاك، كانت متيقنة بأن في جعبة رائد الكثير من الكلام الذي لم يقله ومجيء جارّهم صافية بخبر اعتقال ابنها، قد قطع عليهم جلسة الود والصراحة، كان في قلب رائد شيءٌ يود الاعتراف به، شيء أتعبه ولم يقله، مات ومات سره معه.

هل هم أولئك الذين ورطوه في تجارة الممنوعات، وسلبوه أمواله، ثم أن تجارّهم جميعاً خسرت باكتشاف أمر الشاحنة وما تحويه، هل كانوا يريدون التخلص من رائد كي لا يتكلم عن أحد ويكشف أمرهم، ومعروف عن عائلة أبي رائد بأن لها علاقات وارتباطات برجالٍ لهم مكائنتهم.

هل كان رائد مهدداً؟ لذلك التزم الصمت والتزم بيته وعمله فقط؟

كل تلك الأسئلة كانت تجول في ذهن نيفين، لكن تقول لمن؟، وهي التي لم تُخبر أحداً بشيء عن تصرفات رائد وما يقوم به، وإن تكلمت الآن سيلومها الجميع على صمتها، وربما سببت كارثة للعائلة وعرضت نفسها وابنتها للخطر.

لظالما كان الصمت دأبها، لذلك قررت أن تبقى عليه، لأن لا فائدة مرجوة بعد الآن من كلامها ولن يعود رائد إلى الحياة مهما حدث.

«عظم الله أجركم»، «البقية في حياتكم»، «بسلامة الدين والإيمان».

كانت عبارات العزاء تتردد من أفواه النساء، يواسينها ويواسين والدته رائد التي لم تتوقف عن البكاء والنحيب.

«مسكينة ترملت صغيرة»، «مصدومة لا تستطيع البكاء»، «سيجف حليب الطفلة من الحزن»، «كان الله في عونها تيمت ابنتها الرضيعة».

تعامست النساء بهذه العبارات حول نيفين التي لم تلقِ لهن بال، لا يهم أن تكون أرملة وهي التي عاشت مع رائد عامين كانت فيهما أرملة الروح والقلب، لكن حزنها كان أكبر على ابنتها التي ستكبر بدون أب وسيبقى الناس ينتعونها باليتيمة، و ينظرون إليها بعين الشفقة.

انتهى العزاء، وانتهت أشهر العدة التي قضتها نيفين في بيتها، جلست في غرفتها توظب حقيبتها لمغادرة بيت الزوجية إلى بيت أهلها بعد طلب والدها منها، وكانت الجارة صفية تجلس بالقرب منها وهي تمسح دموعها بسبب حزنها على مغادرة نيفين البيت، وهي التي ما دأبت عن زيارتها والوقوف بجانبها وأنستها طوال فترة العدة.

- سأفتقدك كثيراً يا ابنتي.

- وأنا أيضاً خالتي صفية، لكن لن أقطع تواصلني معك وسأتي لزيارتك دائماً.

احتضنتها وهي تقبل رأسها، والحالة صفية تجهش في البكاء الذي لم تتوقف عنه يوماً منذ أن تم اعتقال ابنها أحمد.

- هل من جديد عن ابنك؟

- ليس بعد يا ابنتي، المحامي يقوم بعمله ووعدنا خيراً.

- وهل بإمكانكم زيارته؟

- لم يُسمح لنا بذلك.

-قوانين البلد اللعينة.

-صه يا ابنتي، لا تقولي هذا، الحيطان لها آذان.

-تعبنا يا خالة من الصمت، تعبنا.

-ستفرح بإذن الله يا ابنتي، الحمد لله على كل حال.

غادرت نيفين بيتها مع ابنتها سارة، لتقيم في بيت أهلها، تحت كنف والدها مع أمها وأخيها البكر سعيد وزوجته وأخيها الأصغر وليد.

عادت مكسورة الخاطر «أرملة» و كأنها غريبة عن هذا البيت الذي عاشت فيه طفولتها وصبأها وخرجت منه عروساً لتعود إليه أمماً وابنتها، جمال نيفين وصغر سنها لا يخفى على أحد، لذلك كانت محط أنظار العائلات التي تبحث عن عروس لابنهم المطلق أو الأرملة، أو الذي بلغ من العمر عتياً ولم تنجب زوجته بعد، فيرى في نيفين رحماً فتياً لإنجاب أولاده.

كانت تقابل عروض الزواج جميعها بالرفض، لم يعد لها طاقة على بدء حياة زوجية جديدة حتى ضاق والدها بها ذرعاً.

ذات مساء أحضرت الشاي وجلست مع والدها بعد عودته من العمل وتناول طعام العشاء، كان يدخن سجائره بشراهة وربما بعصبية وكأن أمراً أغضبه أو يُشغل باله.

كانت نيفين ترقبه وهي تعلم جلياً ما يدور في ذهنه وما يُغضبه، فأرادت أن تفتح باب الحديث بينهما، فسألته:

-كيف حالك يا والدي، عساك بخير إن شاء الله.

رمى عقب السيجارة في المنفضة وأخرج ثانية ليشعلها ثم أجاب:

-ومن أين يأتي الخير، وسودتي وجهي أمام البشر.

-وهل رفضي للزواج يجلب لكم العار؟

-تقدم لخطبتك أرقى عائلات الشام، وكنت أخجل في كل مرة كيف أقول لهم بأن ابنتي لا ترغب في الزواج، وأتذرع بأنك ما زلت حزينه على المرحوم.

-سواءً كنت حزينه أم لا، لن أكرر الزواج يا أبي، جربت حظي مرة واحدة ويكفي ذلك، ولن أربي ابنتي مع رجل غريب .

-كيف سيكون غريباً، وهو زوج أمها بمثابة والدها، وسيكون والد أخوتها في المستقبل.

- أبي، أرجوك، لا رغبة لي في الارتباط بأي رجل، يكفي بأنك أجبرتني على الزواج أول مرة وأنا لا أعلم عن الحياة شيء، وأخرجتني من المدرسة وحرقت أحلامي كلها، ومن قال لك بأن يسمح جدها أبو رائد بأن تبقَ معي إن تزوجت، وأنا لا أريد أن أعيش بعيداً عن ابنتي.

نفضت وهي تتابع حديثها وقد جاءت أمها على صوتها وتبعها أخوها.

-هل سألني أحد منكم إن كنت سعيدة في زواجي، هل جرب أحدكم أن يأتي لزيارتي ويتفقدني، هل علم أحد بالحياة التي كنت أعيشها وبذلك السجن الذي كان يضمني، هل جرب أحد منكم أن يرفع سماعة الهاتف ويسأل عني؟

لو فعلتم ذلك لعرفتم حينها أي حياة كنت أعيش، لعرفتم أن خط الهاتف كان لا يعمل حتى عودة رائد من العمل، وباب البيت يوصد عليّ بالأقفال، هل كان أحد يعلم بالحال الذي كان يعود به رائد إل...ثم أطبقت فمها وعضت على شفيتها وأغمضت عينيها كي لا تبوح أكثر ثم انهارت على الأريكة وأعين أهلها تنظر إليها بذهول.

«اذكروا محاسن موتاكم» وردت إلى ذهنها هذه العبارة، فلن تتحدث عن رائد أكثر مما تحدثت، بعد ذلك أردفت تقول:

-لكنه قد تغير في الآونة الأخيرة، تغير كثيراً يا أمي.

احتضنتها أمها وهي تبكي معها، ووالدها لم يعلق بأي كلمة، بل قام من مجلسه وغادر المنزل.

قُدِّرَ لنيفين أن تعارك الحياة في سن صغيرة وقدرها أن تختبر الحياة صبرها، فاختارت أن تربي ابنتها وتكرس حياتها لها وتعلمها وتعوضها عن حنان الأب.

كانت رغبتها في أن تُكمل دراستها، لكنها فكرت بالأمر طويلاً، وكان خيارها أن تلازم ابنتها ولا تتركها عند أحد، حتى ولو كانت ساعات قليلة في النهار.

وجاء القدر مرة أخرى ليثقل كاهلها بوفاة والدها بعد أربع سنوات وذلك بعد اصابته باحتشاء في العضلة القلبية، فاستلم أخوها سطوة البيت، وباتت تحت رحمته وزوجته التي بدأت تتأفف من وجودها، اقترحت على والدتها أن تستأجر بيتاً صغيراً تعيش فيه مع ابنتها ويكفيها ما خصصه جد سارة لها من بعض المال الذي كان والدها يتقاضاه أثناء عمله في المتجر، وإن احتاجت ستقوم بتدريس أطفال الحي عندها في المنزل، لكن الأم اعترضت وقالت لها:

-ماذا سيقول عنا الناس يا ابنتي، ستصبحين علكة في أفواههم، سيقولون ابنة المرحوم أبا سعيد تشاجرت مع أهلها وخرجت لتعيش وحدها، ولا تنسي بأنك شابة جميلة وابنتك صغيرة سينسجون القصص على هواهم وبالتحديد أولئك الذين رفضتي الزواج من أبنائهم.

-متى سنعيش دون الالتفات لكلام الناس وكأننا معلقون بألستهم، لقد ضاقت بي الحياة ولا أريد أن أكون سبباً بالمشاكل بين أخي وزوجته، ولا أستطيع أن أقول شيئاً، كل يوم أصمت عن كلامها الذي تجلديني به، كل يوم تخبرني عن عريس جديد، أنا أفهم تماماً ما تريده، والحق معها أنا لا ألومها.

انتفضت الأم غاضبة وقالت:

-لا يحق لها أن تتدخل بك، هذا البيت بيت أبيك ولك حق العيش فيه.

- وهذا البيت بيت زوجها يا أمي؛ أي بيتها ولها الحق في أن تعيش براحتها.

-لكن يا ابنتي لا أعتقد أن يقبل جد سارة.

جلست نيفين بعد أن كانت تمشي في أرجاء الغرفة وسرقها الشرود قليلاً قبل أن تكمل أمها كلامها:

- الأفضل أن يكون على علم بما ستقومين به.

-سأعود لبيتي، لا أعتقد بأن عمي سيعارض، والبيت باسم المرحوم رائد، وسارة لها الحق في أن تعيش في بيت أبيها.

ابتسمت نيفين للفكرة التي لمعت في رأسها وتفاءلت خيراً ولم تستطع والدتها أن تعارض فما كان عليها سوى أن توافق ابنتها على قرارها.

وكان لها ما طلبت، وافق أبو رائد على إقامة نيفين وسارة في بيت ابنه، الذي هو شرعاً لمن الحق فيه، بداية الأمر اعترض على إقامة نيفين وابنتها لوحدهما، لكنه وافق بعدما أصرت نيفين وطمأنته بأن والدتها ستلازمها بين حين وآخر وجارتها صافية لن تتركها.

كانت سارة قد بلغت من العمر ست سنوات، وأصبحت الأنيسة لوالدتها ولن تشعرها بالوحدة أبداً. اليوم الأول لسارة في المدرسة، وأمها كانت سعيدة لرؤية ابنتها تكبر أمامها، أوصلتها الى المدرسة وعادت لتجلس وحدها، لم تدم خلوتها طويلاً حتى قرع جرس الباب، نهضت و فتحت الباب لتجد أمها خلفه:
- أهلاً أُمي.

- جئت لأراك، هل ذهبت سارة إلى المدرسة؟

- نعم ذهبت، ابنتي الحبيبة تُذكرني بنفسي حينما كنت في عمرها.

دعينا ندخل، لم أشرب قهوتي بعد.

ولجنا إلى الداخل، وجلسنا تحتسيان القهوة معاً ويتبادلان الأحاديث. لمعت في رأس نيفين فكرة، عرضتها على أمها:

- ما رأيك أن تقيمني معنا؟

- وأترك بيتي؟

- أُمي حبيبتي، كنتِ تتذرعين بالبقاء لأجل أخي وليد، وها هو الآن قد سافر إلى السعودية، ولم يبقَ أحد في البيت سوى سعيد وزوجته، دعهم واسكني معنا.

قطع حديثهما صوت جرس الباب الذي ظهرت من خلفه الجارة صافية بعدما فتحت لها نيفين واستقبلتها بحفاوة:

- أهلاً بالجارة الغالية.

دلفت إلى الداخل لتشارك أم سعيد ونيفين قهوتهما وتتبادل معهما الأحاديث.

في جلسة كهذه، يدور الحديث والأسئلة عن أحمد وتبدأ النساء بتذكر حوادث مشابحة وما حلّ بأصحابها، لكن الجرائم كالسرقة وغيرها حكمها أخف من أن يكون الجاني مجرم كلمة أو أنه مجرم تفكير، حينها سيكون السجن مقبرته.

كان حديثهم همساً بالكاد يسمعن بعضهن، كي لا تنصت آذان الجدران لهن كما يقال، لكن الجدران بعد ذلك كانت الشاهدة على كل شيء ولو نطقت لتحدثت عن الكثير من الفظائع.

وقت الظهر، ذهبت نيفين لتحضر سارة من المدرسة، فوجدتها تقف مع طفلة بعمرها، ممسكة يدها بقوة وكأنها تعرفها منذ زمن، و ما إن رأت أمها حتى سحبت صديقتها وعرفتها عليها:

-أمي، هذه صديقتي لورين، أحبها كثيراً.

كانت أم لورين على بعد أمتار، اقتربت منهن وتعرفن على بعضهن، لتتوطد العلاقة بينهن فيما بعد.

الفصل الخامس عشر:

أنت لي

عاد غيابك ليفرض نفسه على أيامي، لكنني كنت أعيش بسكينة حروفك المختصرة التي وصلتني ليلة رأس السنة، والتي من فرط كبريائي لم أستطع أن أبوح لك بكل ما في داخلي ولو بكلمة واحدة،

كم وددت أن أحمل نفسي على كتفي وآتيك بكلي، بحطامي بأشلائي بجروحي النازفة، أشكو إليك هزيمتي، فقد خرجت من المعركة خاسرة.

تلك المعركة التي أدخلتني فيها وخضتها لوحدي، تدمرت كل أسلحتي وبتُّ عزلاء أواجه قدرتي، كان حتماً علي أن أفق مكتوفة الأيدي لا أن أواجه، لأني كنت أعلم مسبقاً بخسارتي.

لا أخفي عنك بأني فكرت يوماً في نسيانك، إن كان هذا قرارك، وأردت الابتعاد حتى دون وداع، ولأجل أن يكف قلبي عن العويل، أردت أن أنتزعك منه، مثلما انتزع المسعفين ذات مرة شظية اخترقت خاصرتي أثناء وجودي في حي جوبر الدمشقي، حين تم نقلي إلى مشفى ميداني يفتقر للأدوية والمواد المخدرة، وتم انتزاع الشظية وأنا بكامل صحوي، أذكر بأن أحداً أعطاني وشاحاً كي أعرض عليه لأجل أن أقاوم الألم لكنني رفضت، وتمت العملية ولم أصدُر صوتاً إلا في أعماقي التي كانت تصرخ يا الله، لكن ألم انتزاعك من قلبي يفوق ذاك الألم بأضعاف مضاعفة، شيئاً شبيها بانتزاع الروح يا ابراهيم.

كنت وكمن يسير على محيط دائرة مركزها أنت، لأعود لذات النقطة التي انطلقت منها وأنت مكانك، لا تتغير الأبعاد بيني وبينك ولا المسافات، كان الهدف نسيانك، لكنني نسيت نفسي وما نسيتك.

على العكس كنت تتربص بذاكرتي أول استفاقة لي، في أول حلم أراه، حتى وإن تجرعت حبوب المنوم لأدخل في نوم عميق لأغيب فيه عن واقعي، فسأراك أنت.

أنا لم أعد نفسي، بتُّ أنت في كل حالاتي.

و حينما جاءتني حروفك، لم أعلم إن كنت في الصحو أم في الحلم، فلطالما تحدثنا كثيراً في الأحلام.

كم وددت أن آتيك بكلي، علّك تلثم جراحي فتطيب.

وأقول لك اشتقت إليك يا وجعي.

كنت قد طلبت كثيراً من الله أن يكون عامي الجديد معك، وأن لا تمر أيامي بعد الآن بدونك، وربما اعتدت على القليل منك، بعدما أغدقت عليّ بفيض حبك، حتى باتت بضع كلمات منك يُعدن إلى قلبي النبض كما لو كانت من أئمن أنواع الأدوية، وافتقدت لصوتك، بثُّ أتمنى لو أُنِي خبأت بعضاً من أنفاسك وصوتك في قارورة، أرش على مسامعي منها كما أرش العطر، أو أن أصنع منها كبسولات أتناولها كلما أرهقني الحنين، تذكرت أحلام مستغانمي حينما قالت:

«أئني علم هذا الذي لم يستطع حتى الآن أن يضع أصوات من نحب في أقرص أو في زجاجة دواء، نتناولها سرّاً عندما نصاب بوعكة عاطفية»

لنتناولها سرّاً؟، لماذا يصبح الحب مشتبهاً به، وعلى المدمنين حباً، أن يمارسوا طقوسه سرّاً؟

وهل الاعتراف به جريمة نعاقب عليها بالفراق، وهل لأني كنت لا أكتف عنك أي شعور عاقبتني بغيابك؟ وهل بات البوح بالحب والاشتياق لمن نحب، جرماً كذاك الذي نطقناه فاشتعلت الحرب في البلاد ونُفينا منها؟

لذلك بات علينا أن نكتم رغبتنا ومشاعرنا كي لا ندمر الحب فوق رؤوسنا، ولا ينقلب علينا ليسقطنا من على كرسي السعادة، ويسحب بساط المودة من تحتنا.

تسللت رسالة جديدة منك إلى هاتفي مساءً، لتقول حروفها:

«اشتقتك، انتبهي لنفسك، لا تنسي أنتِ لي... إلى اللقاء»

وبقيت معلقة بين إلى واللقاء، وبثُّ أحلم برؤيتك ونسيت ألم الأيام التي مضت بدونك.

متى يكون لقائنا وقد أضناني هجرك؟، متى يكون، لأشتكي نار بُعدك؟، أريد أن أسمع منك أسباباً لعدم ردك على اتصالاتي وغيابك عني دون أي خبر، هل تُخفي شيئاً عني؟ ليس منطقياً أن تغيب كل هذه الأشهر، فقط لأننا اختلفنا قليلاً.

كنت أقول لنفسي: « أيعقل أن يتسلل الملل إلى نفسه؟، هل اقتربت منه كثيراً حتى سئمني؟، وكأني بالغت في الاقتراب حتى احترقت جناحي، أم أنه أراد للحب أن يتقد بالبعد، ليعيد إليه زهوته و جمال البدايات»

لكني تيقنت بأنك ما زلت تكن لي الكثير من المشاعر بقولك: « أنت لي »

لكن ما أرهقني سؤال ظل يحوم في ذاكرتي، هل المحب يتعد أو يغيب؟ وهل يضع روحه تحت رحمة الشوق ليحترق بلهبه وناره الكاوية؟

المحب لا يجعل للأشواق باباً مفتوحاً، وهو الذي باستطاعته أن يُغلقه بالوصال.

أراغبُ أنت عن حبي يا ابراهيم؟

أرهقتني كل هذه الأسئلة، وعمت الفوضى في دواخلي وما كنت أريد إلاك لتعيد ترتيب فوضى حواسي وبعثرة مشاعري وتعيد لي هدوئي واتزاني .

جاءني صوتك على حين لهفة، وعلى حين شوق أجبته، في توقيت الحب صباحاً:

- كيف حالك يا شقية؟

-الآن أصبحت بخير.

-مشتاق لكِ جداً.

-وأنا أرهقني الشوق وغيابك، لماذا فعلت بي هكذا؟

-اسمعي يا حبيبي، كانت نفسي متعبة جداً، وكنت بحاجة لأن أبتعد ليخف ضغطك علي.

-ما الذي تقوله؟ وأنت لم تسأل حتى إن كانت نفسي متعبة أم لا ؟ وماذا يمكن أن يفعله غيابك بي؟

-أنت لم تغيبني عني يوماً، كنت أتابع كل مقالاتك على النسخة الإلكترونية لمجلتكم.

-وماذا استنتجت؟

-كنت أطمئن عنك، وعرفت مدى حبك لي، لا تعتقدي بأن أسمح لنفسي أن أضيعك أو أفقدك.

-حسناً، أريد أن أراك، هل نلتقي في المقهى؟

-سارة، أريد أن أقول لك شيئاً.

-ما الأمر، قل.

-أنا لست في القاهرة، لقد سافرت منذ ثلاثة أشهر.

نحضت من سريري وانتفض قلبي وانفجرت الدموع من عيني، ولم أستطع أن أتحدث بشيء.

وحينما باغتك صمتي أكملت:

-أنا في باريس الآن، لقد رشحت الشركة اسمي لأكون مندوبها هنا لما رأوه من اجتهادي و اتقاني للعمل.

لم أستطع أن أنطق بل بثُ أشهق ولا يصلك مني إلا صوت أنفاسي المتقطعة.

-سارة لا تبك، عملي هنا ضروري لأجل مستقبلنا وسعادتنا أنا وأنتِ، صدقيني.

وكأنك كنت تعلم بأنك إن أخبرتني بسفرك، سأمنعك، وأنت الذي التمس جنوبي وتعلقني بك، فكان

غيابك مفاجئاً وكأنك أردت أن تعالج ألم الذراع المودعة بالبتز، فبترت يدي الممدودة إليك وسافرت، كي لا

تبقى معلقةً بك، ويضنيك وداعها.

أردت أن تفاجئني بالغياب لأعتاد بُعدك، وصببت الثلج فوق مشاعري المشتعلة، لتطفئ نار تعلقني بك،

ويكون غيابك برداً وسلاماً على أيامي فيما بعد.

وأنا كنت أعتقد بأن غيابك بسبب غضبك مني، زُيماً استغلّيت هذا الغضب لتسافر دون وداعي، وتركتني

أنا أتخبط في الفراغ، بين متاهات الأسئلة لا أجد أي نجاة.

أيعقل أنك تحمل قلباً قاسياً بين ضلوعك؟ أم أنك تستطيع السيطرة على مشاعرك خلافي؟

أنا أملك قلباً لا يقوى على أي ألم، وأنت أعلم به لأني أسكنتك فيه، ومع هذا لم ترأف بهشاشته.

الفصل السادس عشر:

سارة

نسمات الخريف الباردة تداعب وجنتي، أمسك بيد أمي التي حملت حقيقتي عني وكنت أسير بجوارها بخطواتٍ سريعة ، تتبادل النظرات والابتسامات بين حين وآخر، حتى أوقفنا رجلًا ثلاثيني، يخضب البياض نصف شعره، ويرتدي زيًّا رسمياً، كان قد ترجل من سيارته التي أركنها بجانب الرصيف قبل أن يقاطع خطواتنا بعدما حاولت أمي اجتيازه:

-صباح الخير مدام نيفين.

-نعم، ماذا تريد؟

-وهل علموك آل الشامي أن تردى الصباح هكذا؟

-ليس لدي وقت، ابتعد عن طريقي.

-لا تخافي، أريد أن أتحدث معك قليلاً.

-قلت لك ابتعد وإلا صرختُ بأعلى صوتي.

تنحى الرجل جانباً وسمح لنا بإكمال طريقنا وهو يتمتم بكلماتٍ مع نفسه.

سألتُ أمي حينها:

-من هذا الرجل؟

-كان صديقاً لوالدك.

-ولم لم تقبلي أن يُحدثك.

-لأنه غريب، وعلينا ألا نكلم الغرباء.

وصلنا إلى المدرسة، تركت أمي على وجنتي قبلتين، وبقيت واقفة ترقبني حتى وصلت إلى باحة المدرسة، وكنت كلما التفتُّ ورائي أجدها ما زالت واقفة تلوح لي بيدها، وفي آخر التفاتة لمحت صديقتي لورين و أمها قد وصلتا، فسارعت لورين نحوي ووقفت والدتها مع أمي.

تعمدت أمي الانتظار حتى لا تعود وحدها إلى البيت وتصادف الرجل الغريب الذي قطع طريقنا، ملامح أمي حينها كانت توحى بالرعب على الرغم من أنها حاولت أن ترتدي قناع القوة حتى أبعده عن طريقنا. في الظهيرة، وجدت أمي تنتظري مع والدة لورين، وكأنهما لم تتحركا منذ الصباح.

في الطريق، اشترت لنا أمي وجبة جاهزة، فرحت كثيراً واعتقدت بأنها اشترتها لأجلي، لأني لطالما كنت أطلب منها أن تشتري لنا (شاورما أو البيتزا) لكنها كانت تفضّل أن تصنعها في البيت، حتى عرفت بأنها لم تعد إلى البيت، بل رافقت أم لورين إلى بيتهم القريب من المدرسة وكان أمي خشيت العودة لوحدها كي لا تصادف ذلك الرجل.

يومها اتصلت أمي بجديتي أم سعيد وأصرت عليها بالجيء، لتبيت عندنا ليلتها دون أن تبين لها السبب أو خوفها من البقاء وحدنا (لأول مرة أرى أمي قلقة)

لبت جدتي الدعوة وجاءت إلى بيتنا برفقة خالي سعيد الذي أوصلها وعاد أدراجه، وليلتها نمت في حضن جدتي وأنا سعيدة بوجودها وأمي حلّت على ملامحها الطمأنينة والسكينة.

في صباح اليوم التالي، لم أجد إلا لورين ووالدتها على الباب، لأرافقهن إلى المدرسة، علمت بعد ذلك أن أمي طلبت من والدة لورين أن تأخذني برفقة ابنتها إلى المدرسة.

سمعت أمي تتحدث على الهاتف بنبرة عصبية وتقول:

-الله سيأخذ حقنا، الله المنتقم، ثم تابعت:

-انس هذا الرقم، وسأخبر عمي أبا رائد، بأنك تضايقني وهو سيتصرف.

كان ذلك الرجل الذي قطع علينا الطريقة ذات صباح، هو ذاته المتصل، كان يحاول التودد لأمي وأخبرها بأن الحادث الذي أودى بحياة والدي كان مدبراً ويعرف المتسببين به، لكنه اشترط عليها أن توافق على

الزواج به مقابل إخبارها بأسمائهم ووعدها إن قبلت أن يوصلهم إلى جبل المشنقة، لكنها رفضت وهددته أن تخبر جدي بأمره، فكفَّ عن ازعاجها لأنه يعلم ما يمكنه فعله.

مرت الأيام ونحن نعيش لوحدها، أكبر ومكتبة بيتنا تكبر معي، كانت أمي تجلب لي الكتب والقصص المناسبة لعمرى، حتى خصصت لي رفأً في مكتبتها وجعلتني أشرف عليه، وكنا نجلس معاً في المساء، نقضي وقتنا في القراءة وأحياناً كنت أحب أن تحكي لي أمي قصة الكتاب وتسرده علي، لأني أجد في ذلك متعة تفوق متعة قراءتي له.

في يوم العاشر من يونيو 2000:

قُرع جرس الباب بإلحاح، كانت جارتنا صافية على عجل وما إن فتحت لها أمي الباب حتى ولجت مسرعة إلى الداخل، و بدأت تهمس لأمي في أذنها.

سارعت أمي إلى فتح التلفاز، كانت تصدح القنوات بآيات قرآنية، في المقابل امتلأت الشوارع بالحشود وآلاف من النساء والشباب يحملون أعلاماً سوداء وصوراً ويهتفون حزناً على روح رئيسهم الذي وافته المنية.

حضرت أمي القهوة وجلست مع جارتنا الذي كان الفنجان يتراقص بين يديها وأمي تخفف عنها، لربما تغير الحال وأطلق سراح ابنها مع الكثيرين مثله، لكن بعد عدة أيام تبدد الأمل و تيقن الناس بأن القادم لن يكون أفضل مما مضى.

بدأت أمي بتعليم أطفال الحي في المنزل مقابل مبلغ من المال، على الرغم من اعتراض جدي لذلك، لكنها تذرعت بأنها تريد أن تملأ وقتها وأن غايتها ليس المال، لكنها في الواقع كانت تدخر كل ما تجنيه وتُخبرني بأنه لمستقبلي، وكأنها كانت تشعر بأن المستقبل يُخبئ لنا شيئاً.

مرّت بعدها عشر سنوات كانت حياتنا خالية من أي حدث لربما يعكر صفونا أو يُسعدنا عدا عن نجاحاتي التي حققتها في دراستي وسعادة أمي بي في كل عام حينما يتم تكريمي في المدرسة، وبدأت أرسم حلمي في دراسة الإعلام والصحافة، كنا نقضي أيامنا في بيتنا لوحدها وأحياناً تلازمنا جدي عدة أيام أسعد

كثيراً بوجودها معنا وأمتع ذهني بحكاياتها الجميلة، لكن خبر ذهابها إلى السعودية قد أحزننا بعدما دعاها خالي وليد لأداء فريضة الحج، حينها أقمنا عندها لعدة أيام لوداعها.

كانت جدتي تستقبل النساء وقد اكتست بالبياض ابتهاجاً بعدما اكتسحها السواد لسنوات عديدة بعد وفاة جدي، لذلك كانت كشمعة مضيئة بجلّة تلفت الأنظار، كصباح مشرق بعد ليل طويل.

كانت أمي تنظر إليها بعيون ملؤها الدموع، وتتأملها بنظرات مودع وكأنها لن تراها بعد ذلك اليوم، كانت تجلس إلى جانبها وتمسك بيدها وتقبلها بين حين وآخر، وجدتي تطمئننها بأنها لن تتأخر وستعود بعد أداء الفريضة وترى ابنها وليد لبعض الوقت، لأنها لا تستطيع أن تغيب طويلاً عن الشام، ووعدت أمي بأن تدعي لها كثيراً.

لمعت في ذهني فكرة، اقترحتها على أمي حينما لمست حزنها الشديد على جدتي، اقتربت منها وجلست بجانبها وهمست في أذنها:

-أمي، أريد أن أقترح عليكِ أمراً، لربما يسعدك.

-ما الأمر، قولي.

-ما رأيك أن ترافقي جدتي إلى الحج، وأنا أبقى هنا لحين عودتك، لو أنها عطلة لرافقتك أنا أيضاً.

ضحكت أمي على كلامي حتى دمعت عيناها، فلم أعد أميز هل هي تبكي أم تضحك، وكنت أنظر إليها باستغراب، سألتها:

- وهل في كلامي ما يُضحك يا أمي.

-لا نستطيع الذهاب لا أنا ولا أنت.

-لماذا؟ وهل ذلك صعباً؟

-القوانين يا ابنتي، لا يُسمح إلا لمن بلغ الستين عاماً بأداء فريضة الحج، نحن لا نستطيع السفر إلا بشراء فيزا ودعوة من أحد المقربين كزوج أو ابن.

- وهل في قوانين الإسلام ما يشترط عمراً لأداء فريضة ما؟

بعد أن نبغ الستين عاماً؟ قلتُ وأنا أضحك ثم أردفت:

- حينها يكون الحج عملاً شاقاً علينا بعد أن تهرم أجسادنا، وإن مات أحدنا قبل هذا السن يكون قد فاتته القطار.

عضت أُمي على شفيتها ثم قالت لي:

- لا تُكثري الكلام.

- ألا تعلمي بأني إعلامية المستقبل، وعلي أن أحلل كل شيء، وأناقش غرائب الأمور، وأعتقد بأننا في بلادنا يوجد الكثير من الحوادث والقوانين الدسمة التي تصنع سبقاً صحفياً.

- صه، قلت يكفي.

- وهل ممنوع أن نتكلم؟ هذا الواقع يا أُمي، لماذا علينا أن نسكت عن الخطأ؟ ونحن بإمكاننا أن نغيره بالكلمة.

ضحكت أُمي وقالت:

- عنيدة، فكري بامتحانات نهاية العام هي الأهم، والتزمي هدوءك الآن الأعين علينا.

كنت أتحدث دون أن أعني ماذا سيكون ثمن الكلمة إن فكرنا أن نغير بها قوانين صارمة ونزيل بها فساداً قد حل.

كنت على أبواب أن أنهي دراستي الثانوية وأرتاد الجامعة، لتحقيق حلمي وكنت أحلم لأن أمارس مهنتي على أرض وطني بكل شفافية وأن أقول كلمة الحق مهما كلفني ذلك.

بدأت رياح الربيع العربي تهب أرجاء الوطن، حتى طالت بلدي سورية، كنت أتابع الدعوات للتجمعات والاعتصامات على الفيس بوك وتحمست كثيراً لها وانضمت لإحدى التسيقات الوطنية كإعلامية؛ رغبةً مني لأمارس المهنة التي أحب، لكن أُمي كانت تبدي خوفاً وقلقاً لما سيؤول إليه الحال، لعلمها بالتاريخ الذي وقعت فيه المجازر في ثمانينات القرن الماضي، وأن الكلمة في بلادنا ندفع ثمنها عمرنا بأكمله، لكننا في نهاية المطاف دفعنا ثمنها بلداً بأكمله، من شرقه لغربه، ومن شماله لجنوبه.

بدأت التحركات الشعبية في دمشق والاعتصامات أمام السفارات العربية وكانت المطالب تدعوا لإخلاء سبيل معتقلي الرأي.

كانت الخالة صفية تدعوا الله كثيراً لأن يلي نداءهم ويشد على يدهم، عسى ابنها يُفرج عنه بعدما غيبته السجون لأكثر من خمسة عشر عاماً، وهي التي وصلت على مشارف الستين عام، ترجوا بأن تفرج برؤية ابنها قبل أن توافيها المنية، ومثل الخالة صفية الكثير من الأمهات اللواتي خرجن ووقفن مع المتظاهرين ينشدن الحرية لأبنائهن.

بعدها اشتعلت نار الحرب وبدأت تأكل المدن الواحدة تلو الأخرى، والشهداء باتوا يسقطون بالعشرات وأنا وأمي شهدنا الكثير من الكوارث وتعرضنا للموت مرات عديدة، وأفجعتني القدر بفقدان الكثير من أصدقائي وبيت جدي كغيرهم من العائلات ذوي رؤوس المال شدوا الرحال وهاجروا إلى أوروبا. حاول جدي جاهداً أن يقنعني في السفر معهم، إلا أنني رفضت أن أغادر بلدي في تلك الأيام، لأني كنت أشعر بأني جزء من هذا الحراك الشعبي قبل أن يصبح السلاح فيه هو صاحب الكلمة المدوية.

غادرت بيتي وتركت ذكريات طفولتي وانتقلنا إلى حي جوبر الدمشقي، بعدما تعرض أفراد مجموعتنا للاعتقال، واجهنا القصف العنيف والصواريخ وكنا في تنقل دائم من بيت لآخر، حتى حط بنا المطاف في الغوطة الشرقية، ومن ضمن البيوت التي حللنا فيها كان بيت والد جدي أم سعيد الذي ورثه أحفاده من بعده، حيث أقمنا فيه عدة أيام برفقتنا مجموعة من النساء والأطفال، وهو البيت الذي ترك في نفسي أثراً بعد إقامتي في إحدى غرف أحفاد البيت.

عملت كمسعفة وإعلامية وصديقتي لورين التي انتقلت مع أهلها للإقامة في حي العباسيين، كانت تتسلل إلى جوبر لتقييم معي، ونعمل مع فريقنا، ولكنها بدأت تتعرض للمضايقات من أهلها وأقربائها، حتى التزمت البيت، وبعد إصابتي التي أثرت على عملي، عادت بي أمي إلى بيتنا في المزة تحت جناح الليل بعدما أقمنا في العباسيين عدة أيام ثم قاموا بنقلنا إلى المزة، بعد ذلك بفترة قصيرة تم حصار الغوطة الشرقية .

ذات مساء رن جرس الباب، فتوجست أمي خيفة من الزائر في ذلك الوقت، لم تكن الجارة صفية لأنها رافقت ما تبقى من أولادها إلى الشمال السوري، ردت من خلف الباب لتسأل عن الطارق:

-من في الباب؟

-أنا الضابط أبو هاني صديق المرحوم رائد.

-و ماذا تريد؟

-لا تخافي، أريد أن أتحدث معكم كلمتين فقط.

-لا يوجد بيننا أي كلام.

-لا تعاندي يا امرأة، لا أحد يقول لا هنا، افتحي..

دفع الباب بقوة، فانتفضت أمي رعباً وتراجعت إلى الخلف، ولج الضابط إلى الداخل، لكن ما لبثت أمي أن أوقفته.

-قف مكانك، لا يوجد سوى النساء هنا، قل ما عندك واذهب.

-أين ابنتك.

-و ما علاقتك بها.

ما إن سمعت الصوت حتى خرجت مسرعة من غرفتي لكن أمي ما لبثت أن وقفت بيني وبينه وجعلتني من خلفها لحمايتي.

ضحك الضابط باستهزاء ثم قال:

-لن أطيل كلامي، جئت لتفاهم أنا وأنتن، لكنّ عندي عرض عمل.

-لا عمل لنا معكم.

أطلق ضحكته طويلاً ثم أردف:

-تعجبيني أيتها المرأة.. اسمعي أنتِ وهي، لقد كان لنا علم بوجودكن في جوبر بين الإرهابيين، وابنتك

الجميلة كان تعمل لديهم كصحفية، ولو أردت لقدتكن الآن إلى الفرع..

أجابته أمي لترد الشبهة عني:

- لا علاقة لنا بأحد، كنا بزيارة عند أقرباء لنا في الغوطة وعلقنا هناك.

-لنا عيون في كل مكان يا مدام، ولا يخفى عنا شيء.

أشار بإصبعه نحوي وضافت عيناه وهو ينظر إليّ ثم تابع:

- كرامة لوالدك سنغض الطرف عنك لكن بشرط، ستعملين لصالحنا، أنا متأكد بأن لديك الكثير من

المعلومات عن الإرهابيين، ستتواصلين معهم وتخبرينا بكل شيء عن تحركاتهم وخططهم.

-لن أعمل معكم.

حاولت أمي ابعادي عن المكان، وقالت للضابط:

-حسناً، ابنتي مريضة، سنتفق ولك ما طلبت اذهب الآن.

لم يفاجئني كلام أمي لأني أتق بها، وقالت له هذا الكلام رغبة منها كي ينصرف ولا أقع في شجار معه

يودي بي إلى الاعتقال.

هز برأسه وابتسم ابتسامة المنتصر وخرج.

ظلت أمي ترقبه من النافذة حتى ابتعد بسيارته، وبعدها هرعت مسرعة إلى غرفة النوم وبدأت توظب لنا

حقيبة، علمت حينها بنية أمي على مغادرة البيت.

حملنا ما استطعنا حمله مما خف وزنه وغلا ثمنه وبعض الملابس لي ولها، واتصلت بوالدة لورين لترسل لنا

سيارة نغادر فيها فجراً.

غادرنا البيت وغادرت ذكرياتي وعلمت حينها بأن لا عودة لنا بعدها، وفي بيت عائلة لورين اتفقنا جميعاً

على مغادرة الشام للحفاظ على ما تبقى منا من كرامة، غادرنا سورية إلى مصر بعد أن قمنا بإجراءات

السفر التي لم تأخذ منا وقتاً طويلاً، وكنا ندفع المال في كل دائرة لتسريع معاملاتنا.

غادرنا الوطن وغادرنا ذكرياتنا، وتركنا في قلوبنا شوقاً عميقاً لمرتع الطفولة.

كانت لنا مصر وطناً آخر، لم نشعر فيه بالغبية لطيبة أهلها وأرضها، وبدأنا حياتنا فيها من جديد، وسجلنا

أنا ولورين في جامعة القاهرة لنكمل ما كنا قد بدأناه في بلدنا في دراسة الصحافة، حتى تخرجنا وعملنا معاً

وكانت لي الأخت والصديقة والرفيقة وما تبقى لي من وطني وطفولتي هي أمي، حتى باغتني الحب لأشعر
بأني عدت إلى وطني في قلب من أحببت.

الفصل السابع عشر

الذاكرة المنسية

كان يوماً مطراً بارداً، وكأنما كانت السماء تبكي عن عيون كل العشاق الذين يضمنهم الفراق، وعن كل عيون المعتربين الذين أضناهم البعد عن الوطن، وكنت أنا أقف أمام النافذة في مكثي، أتأمل جنون السماء، وذاكرتي تنبش ذكريات جنوبي معك.

دخلت لورين الى المكتب تكاد تطير من فرحها، سبقتها ضحكتها وصوتها وهي تقول:

- لكِ عندي خبر جميل.

التفت نحوها وابتسمت لطالما كانت تشعرني ضحكتها بالتفاؤل ثم أشرت لها بيدي لتجلس وانا بدوري جلست خلف طاولتي.

- لن أجلس هيا ادعيني لتناول الكيك واحتساء القهوة في المقهى على حسابك، لن يمر هذا اليوم هكذا.

ما إن أنهت كلامها حتى وجدتني قمت، حملت حقيقتي وأشرت لها بيدي نحو الباب:

- هيا بنا، أنا بحاجة كثيراً لمثل هذا.

أطلقت ضحكتها وتقدمت نحوي واحتضنتني، ثم قبّلتني على خدي وقالت:

- أحبك لأنك هكذا، لا تناقشي ولا تجادلي، تنفذين فوراً.

- لا وقت للتفكير بمثل هذه الأشياء.

- ألا تريدان أن تعلمي ما الخبر لجميل.

سحبتهما من يدها وقلت:

- في المقهى، هيا.

- لا تنسي المظلة، المطر غزير في الخارج، قالتها وتناولت مظلتني التي كانت معلقة خلف الباب وخرجنا.

في المقهى جلسنا كلتانا على طرفي الطاولة، بانتظار طلبنا، لم تستطع لورين كتم الخبر أكثر، عيناها كانتا تلمعان من الفرح، وابتسامتها لا تغيب عن شفيتها.

-لقد اختارتك الإدارة كأفضل صحفية للعام الفائت، وسيتم تكريمك.

كنت أنظر إليها وكأن الأمر لا يعنيني، ثم ابتسمت لأني تذكرت حينما كنت أقول لك بأني أطمح لأن أتفوق في عملي، وكنت دائماً تشجعني.

-سيسعد هذا الخبر ابراهيم كثيراً.

-ابراهيم، ابراهيم. لا أسمع سوى اسمه منك، افرحي أنت يا بنت، ابراهيم مشغول بالباريسيات الآن.

ضربتها على يدها التي كانت تمدها على الطاولة أمامها، ناهرةً إياها أن تكف عن هذه الاتهامات له.

كان اسمي وخبر تكريمي قد كُتب في الصفحة الأولى للجريدة، وكنت بانتظار حديثك معي، لتشاركني فرحي بهذا النجاح، لا أعلم لماذا كنت واثقة جداً بأنك ستقرأ الخبر على النسخة الالكترونية وستصل بي فوراً، مرت عدة أيام على ذلك ولم يرن هاتفي باسمك، حتى ذلك المساء حينما وردتني رسالة منك على الانترنت.

-كيف حالك.

-مشتاقة لك، كيف حالك أنت.

-بخير، مرهق قليلاً من العمل.

-تأخرت علي، افتقدتك.

- لا تقلقي أنا بخير، ما هي أخبارك؟

شردت طويلاً بسؤالك، أخباري؟ أيعقل أنك لم ترّ الجريدة ولم تقرأ الخبر فيها؟

ثم كتبت لك:

-أخباري في الجريدة، إن كنت مهتماً.

قرأت ردي ولم تعد تكتب، وكأنما أزعجك جوابي، انتظرت حتى تكتب لي، لكنك لم تعد متوفراً، فقدت أعصابي وانتابني رغبة عارمة في البكاء، وبدأت أنحال عليك بكلامي:

-أيعقل هذا يا ابراهيم؟ أن لا تكون مهتماً بأخباري، وأنا كنت بانتظار أن تكون بجاني بمثل هذا اليوم ولو على الهاتف، لأشعر بأنك تقاسمني فرحي.

جاءني ردك بعد ساعة:

-قرأت الخبر، مبارك لك.

-ما بك يا ابراهيم، لم أتوقع أن تكون ردة فعلك هكذا.

لم تعد تجب كعادتك، وانتهى الحديث بيننا دون كلمة وداع أو إلى اللقاء، واشتعل قلبي بنار كاوية، وألم حارق سكن جوفي.

كنت كمن يطلب أمراً مستحيلاً حينما أنتظر منك لحظة من وقتك لأشعر بقربك وبوجودك، كان يخيل إليّ أن أجذك حاضراً معي في فرحي وحزني لكنك لم تكن، وكنت أصدم حينما أفتقد وجودك وألامس ردة فعلك الباردة اتجاه أي أمر كان يسعدني ولا أرى في كلماتك أي اهتمام وكأن أمر سعادتي لا يعينك.

بت لا أفهم ما طبيعة حينا وما تكّنه لي من مشاعر وهل حبك لي يقف فقط عند الاهتمام بأشياء وتتغافل عن أهم الأشياء.

الحب أن تهتم لأدق تفاصيلي وأن يسعدك ما يسعدني ويضنيك ما يجزني، أن تتقفى أثري ولا ترغب في اختفائي كما كنت أنت تفعل بي وتختفي لأيام، لا أعلم عنك أي شيء حتى إن عاتبتك وكأني أقف على فوهة بركان حار تحرقني بردودك ..

أتعني حينا يا ابراهيم ووضعي على حافة هاوية، أنظر إليها خائفةً أن تبتلعني إن ارتكبت حماقة ما معك، وأنظر إلى ما حولها لأراك أياماً تغدق بحبك علي وأياماً تبتيني شوقاً .

صرت أخشى أن أعاتبك على قلة اهتمامك وغيابك لأني أخشى أن تعاقبني كما فعلت منذ أشهر، صرت أكنتم شوقي كابتلاع حد سيف يشق قلبي نصفين ويرهقني الماء، وأتظاهر بأني قد عذرتك على غيابك.

جعلتني أبكي في ليلي ونهاري حينما ابتعدت واختفيت ولم تعد تحدثني ولا ترد على رسائلي واتصالاتي، تركتني أضيع في هوة التساؤلات التي لم أكن أجد أجوبة عليها، التهمتني دوامة الضياع و جعلت مني أشلاء حتى غدوت أتحدث لنفسي وأكتب لك رسائل أقول لك فيها كل ما لم أستطع البوح به.

أعاتبك كما أشاء بحروف على الورق، أبكي حتى أشعر بأن ينابيع دموعي جفت وجف جسدي وينهار منهكاً ، فأنام ساعات طوال لا أتمنى فيهن أن أستيقظ، أو أن يهجرني النوم لأيام حتى يسكن الليل تحت عيوني وأصاب بالصمت كلاماً وكتابةً.

كم من الكلام وددت أن أقوله لك، وكم من الأحاديث وإن كانت عادية رغبت أن أناقشك فيها، ألسنت نصفني الآخر الذي ينبغي أن يكون معي في كل شيء وأن أتحدث معه كيفما أشاء متى ما أشاء، كيف لنا أن نرتبط ونكون عائلة متفاهمة مترابطة وأنت من الآن لا تسمعي، كرهت صمتك بقدر حيي لك، وأتعبني اهمالك بقدر ما أتعبتني الحرب في بلادنا.

أتصدق أن يغدو حبك شبيهاً بالحرب، وصراعي بين صدك وردك، شبيهاً بالهدنة في ساحات القتال، التي يظل فيها المحارب على أهبة الاستعداد للمواجهة؟

كنت كلما اشتقت إليك أتذكر كلماتك القاسية، وبتُّ أتخفظ بكلماتي معك ، وغيابك أعطاني درساً بأن لا أغدق بمشاعري نحوك ولا بأشواقي وحيي لك.

الحب في قلبي لم يتغير ولن يتغير، ولكن هناك شيء في داخلي قد انكسر ولن يتصلح.

تؤلمني حوافه الحادة كلما باغتني غيابك، فتصمت كلماتي و أكف عن المبالغة في السؤال عنك ومطاردتك هاتفياً، فأتركك لشأنك، حتى يضح الشوق في قلبك ويدرك بي، فكنت لا تتحدث معي رأفةً بي بل رأفةً بنفسك.

لماذا فعلت بي كل هذا، وأنت الذي حينما اخترقت حصوني، وعدتني بأن تكون سنداً لي و تعوضني عن كل الأيام التي عشتها حزينة.

أتذكر حينما أخبرتني بأنك ستكون بقربي كلما احتجتك، الوعود دين يا ابراهيم، كيف لك القدرة على حمل كل هذه الديون على عاتقك ولا تفي بشيء منها.

فاجئني اتصالك ذات يوم وأنت بقمة اشتياقك، حينما طلبت مني أن أقدم طلباً في السفارة الفرنسية من أجل اللجوء إلى فرنسا.

حينها قلت لك:

- زُيماً أحاول.

- لا تقولي ربما ولا تفكري، نفذي في الحال.

- لكنني اعتدت الحياة هنا، وعملي هنا، وأصدقائي جميعاً.

- أها، وهل هذا كله أهم مني، أهم من أن تكوني بقربي.

أغمضت عيني وعضضت على شفتي أكتم أماً حلّ بداخلي، ثم قلت لك:

- بتُّ أخاف أن أقرب منك، لأني حينها سأحترق، سأشعر بأنك قريب، لكن لن يكون لك وقتٌ لي.

- لا بأس، المهم أن تكوني بقربي، ومن نصيبي.

بات الارتباط بك حلاً مرعباً، بعد أن كان حلاً أدعو الله بأن يحققه لي لأكون أسعد إنسانة في الكون،

لن أطلب بعده شيء، لكن بدأت أفكر فيما بعد، وإن بقيت على تعاملك لي، وانشغالك الدائم في

العمل، وأنت الذي ما دأبت أن تبحث عن عمل آخر حتى بت تصل ليلك في نهارك، وتنسى وجودي في

حياتك.

كنت حينما أسألك إن كنت تفكر بي، كنت لا تكذب علي، صراحتك كانت تقتلني، كنت أمتني أن

تقول ولو كذباً كلاماً تسكت فيه قلبي، لكن بدلاً من ذلك كنت تقول:

- والله بتُّ أنسى نفسي، ليس فقط أنت.

كان كلامك يودي بي إلى الجنون، لم أكن أستطيع التفكير في التخلي عنك أو الابتعاد أو أن أعيش حياتي

دونك، على الرغم من كل السكاكين التي غرستها عميقاً داخل قلبي، إلا أنه ما يزال يحبك بجنون.

قد تيقنت يا ابراهيم بأنك رجل تقدس العمل، وهذا ما جعلني أحبك أكثر، ولكن لقلبي عليك حق

الوصال وعلى رجل مثلك أن يعطي كل ذي حق حقه.

باتت أحاديثنا يا ابن قلبي، تُختصر في بضع جمل، أسالك عن حالك لتجيب بعد عدة ساعات وأحياناً بعد عدة أيام.

من يجب لا يبخل برسائله على من يجب ولو ببضع كلمات، لأنها لا تأخذ منه وقتاً، بقدر ما تمنح قلب المحبوب عمراً من فرح.

لا أعلم إن كنت أبالغ في مشاعري وشعوري اتجاه ندره حديثك، أو كان حديثنا على الهاتف أداة قطيعة لا صلة وصل، لأن لقايتي بك كان يكفيني عن الحديث معك لعدة أيام، ونظرة من عينك تختصر علي الكثير من الكلام، ولمسة من يدك تكفيني عن ألف شعور.

بتُ أستيقظ صباحاً أنتظر حديثك كما اعتدت مسبقاً، بتُ أشتاق لصباح الخير منك، لصوتك أول استفاقتك، للقاءك حينما نتواعد على حين فجأة، كلمة منك كانت تشعرني بأن الدنيا جميلة جداً، كنت أرى كل شيء بطريقة مختلفة، الحب يجعل من الحياة جنة ملونة، لكن لم أكن أعلم بأن الجحيم يترصد بنا منذ أول خلاف أو سوء تفاهم.

أهدتنا الحياة قبل أن نلتقي ونحن على مشارف الموت؛ شيئاً شبيهاً بالحب، وحينما التقينا كان حبنا شبيهاً بالموت نفسه.

أسأل نفسي لماذا؟ هل أنا المخطئة، هل أتوهم، هل أبالغ كعادتي، لكني كلما حاولت أن أقنع نفسي بأن لا شيء يدعو لكل هذا الألم، يأتي غيابك مرهقاً لقلبي، وحينما تأتي لا ألتمس لهفتك وأنا التي قد خبأت لك أشواقاً بحجم الجبال، ما تلبث أن تُحيلها رمالاً تذرورها رياح صدك.

مزاجيتك تقتلني، وكأنك تعلم بأني سأعاتبك على غيابك فتبادرني بصلافة الحديث.

لماذا يا ابراهيم؟ لماذا؟

هل أستحق منك كل هذه القسوة؟ هل ضمنت حبي لك وتعلقني بك ووثقت بأنيك مهما فعلت بي لن أتركك؟

بالطبع تقول لنفسك، هجرتها ثلاثة شهور ولم تتركني، وعادت لي من أول كلمة، والآن تلتفت لنفسك ولعملك ولا يهملك ما قد أشعر به، لأنك متأكد بأني سأسأحك.

وكنت في كل مرة أسامحك.

وأحببتك دون غيرك، ولن أحب من بعدك، لكن رأفةً بي كن واضحاً معي، يقتلني الوقوف في المنتصف،
يميتني التآرجح بين أن أكون ولا أكون .

أنهيت كتابة مذكراتي التي سأضمها في كتاب، ملمت أوراقها ووضعتها في حقيبة، كان قد داهمني الصداع
ومنحت عينيّ لوناً قرمزيّاً من البكاء، نهضت ووقفت أمام النافذة أتأمل السماء، كانت الغيوم مبعثرة بعد
ساعاتٍ من نحيب، وقلبي قد أتعبه النشيج.

ارتديت معطفي الذي لن يقيني من برودة اعترتني من نيران الضياع، ووضعت وشاحاً ليلكاً حول عنقي،
أهديتني إياه يوماً، أتذكر حينها قلت لي أخاف عليك من البرد ولون الليلك يليق بك، أما زلت تخاف
عليّ من البرد يا ابراهيم؟ كنت قد وعدتني أن تهديني معطفاً هذا الشتاء، سيكون لي كتاباً، وأبيع كلماتي
فيه، وأشتري وشاحاً ليلكياً أرتيه صيف شتاء، ليقيني برد أيامي دونك.

كسر صمتي رنات هاتفني، ووجدت اسمك على شاشته، لم تعتريني الدهشة كما كنت سابقاً، أجبته:

-ألو.

-كيف أنتِ.

-لا أعلم.

-وكيف ذلك.

-ربما بخير.

-اشتقتك.

-وأنا أكثر.

-متى سألقاكِ.

-ربما يجمعنا القدر يوماً.

- ما بك، لا يعجبني صوتك.

- لا شيء، لكنني كنت عازمة على الخروج.

- جيد، هل تمطر عندك، أعلم بأنك تحبين المشي تحت المطر.

- لكنه افتقد لجماله في غيابك.

- امم، أنت ترفضين اللحاق بي.

اختنقت بعبء ، وتشنجت حبالي الصوتية، وكنمت نحيباً كنت سأطلقه، لكنه يفتقد لصدرك لأرتمي فيه
وأصب كل دموعي بين ضلوعك.

-ألو.

-معك، أريد عنوانك.

-هل قررت المجيء وأخيراً، زُما تحبين علي خبر قدومك.

- لا ، ليس كما تعتقد، لكن أريد أن أرسل لك هدية عيد ميلادك.

- وما الهدية.

-ذاكرتي.

أطلقت ضحكة لطالما عشقتها، جعلتني أبتسم، وذكرني بكل الأيام الجميلة معك.

-أقصد، كتابي، تعلم بأني كنت أكتب قبل ذهابك.

-حقاً.

-امم.

-ما نهايته.

فاجئني سؤالك حينها، وكأنما اهتمامك كان دائماً بالنهايات، دون الالتفات للجوهر، وأنت كنت دائماً
هكذا، تهتمك النتيجة، دون النظر إلى تفاصيل الأشياء.

أعدت سؤالك علي:

- ما النهاية؟

-النهاية مبتورة...صمتُ قليلاً قبل أن أكمل ثم تابعت:

- كأحلام معك.

كانت نهاية كتابي مبتورة كأحلامي معك، كأحاديثنا، كأيامي دونك، ككل شيء بدأ في قصتنا ولم يكتمل.
وكعادتك، أنهيت حديثك بكثير من الصمت.

أخرجت الأوراق التي كتبت عليها النهاية، أضفت أسفل الورقة مقولة لأحلام مستغامي «ماكنت أريد من العالم كله إلا أنت، واليوم أقول لك العالم كله إلا أنا»

أعدت الأوراق إلى الحقيبة، حملتها وخرجت قاصدة دار نشر لأركن ذاكرتي فيها، لكنني ذهبت إلى ذلك المقهى الذي اعتدنا أن نلتقي فيه، اخترت أن أجلس على طاولة مجاورة لتلك التي كنا نجلس عليها، طلبت فنجان قهوة مع الكثير من السكر؛ لأني سئمت المرارة..

ظللت أرقب العشاق الذين غيبتهم خمرة الحب كما كنا، فرحت لأجلهم وحزنت، ضاق بي المكان، بدأت أختنق من قهقهتهم وأحاديثهم وكأنها دخان سجائر تبعث من احتراق الدقائق التي تشعرهم بنشوة اللقاء.
تركت فنجان القهوة الذي لم تمسه شفطائي، وضعت الحساب على الطاولة، ألقيت نظرة أخيرة على طاولة حبنا، شعرت بقشعريرة سرت في جسدي، تلمست ذراعي كمن يحتضن نفسه، ثم خرجت ودموعي تسبق خطواتي، وسرت في الشوارع خالية من ذاكرتي.

تمت 19/أيار/2021

سهير محمد خير المصطفى

تم الانتهاء من إعادة تدقيقها وتنسيقها للنسخة الإلكترونية 03/تموز/2026 بواسطة المؤلفة

سهير المصطفى